

و كانت صديقة

و كانت صديقة

- القسم 1
- القسم 2
- القسم 3
- القسم 4
- القسم 5
- القسم 6
- القسم 7
- القسم 8
- القسم 9
- القسم 10
- القسم 11
- القسم 12
- القسم 13
- القسم 14
- القسم 15
- القسم 16
- القسم 17
- القسم 18
- القسم 19
- القسم 20
- القسم 21
- القسم 22
- القسم 23
- القسم 24
- القسم 25
- القسم 26
- القسم 27
- القسم 28
- القسم 29
- القسم 30
- القسم 31
- القسم 32
- القسم 33
- القسم 34
- القسم 35
- القسم 36
- القسم 37
- القسم 38
- القسم 39
- القسم 40

و كانت صديقة

القسم 1

استيقظت «خديجة» و شعور غريب بالفرحة و الأمل، ينبعث في نفسها، انبعاث النور في الظلام... و ربّما فكرت في سبب ما لهذه الموجة الهائلة من الفرحة... لم تكن تدري سبباً واضحاً لذلك.. فقد كان كل ما يحيطها يفجر كيوامن الحزن بل و يبعث على المرارة و اليأس... هاهي تشهد كيف تصب قريش العذاب على زوجها.. تضطهده.. تسخر منه.. و تكذّبه و هو الصادق الأمين .
تساءلت في نفسها: لعلّهُ الحمل الجديد و الشجرة المثمرة عند ما تحمل يعني الربيع و الأمل و الحياة. ولكن كيف و قد أخذ الله «عبدالله والقاسم» من قبل. و تركا في قلبها حزناً عميقاً كجرح لايندمل، ولكن لا... لا انها تشعر بالأمل.. يكبر في أعماقها.. ينمو و يفتتح كوردة في الربيع .

و حملها هذه المرة عجب خفيف تكاد تطير به.. تشعر بالسكينة
تترقق في قلبها كنبع بارد.. كما لاحظت شيئاً آخر... مسحة من نور شفاف تطوف فوق وجهها... و شيئاً آخر أيضاً.. أنّها لم تعد تشتتهي طعاماً سوى الرطب و العنب .

أكملت خديجة ارتداء حلة الخروج.. فزوجها ينتظر، و «عليّ» الفتى الذي يتبع ابن عمه... يلازمه كظله، هو الآخر ينتظر .
انطلق الثلاثة.. أخذوا سمتهم نحو الكعبة مهوى الأفئدة و بيتاً بناه ابراهيم لربه .
الكعبة تنشر ظلالها الوارفة فوق الأرض... و السكينة تغمر المكان ما خلا حوار هادئ لرجال جالسين حول «زمزم» كان أحدهم يراقب مشهداً بدا له عجباً.. كان يرنو إلى باب «الصفا». وقد طلع رجل بين الأربعين و الخمسين من عمره.. أفتى الأنف.. أدعج العينين كأنه قمر بمشي على الأرض و إلى يمينه فتى يشبه شبلاً و خلفهما امرأة قد سترت محاسنها .
قصد الثلاثة «الحجر الأسود» فاستلموه ثم طافوا البيت سبع مرات؛ بعدها وقف الرجل و الفتى إلى يمينه و المرأة خلفهما .
هتف الرجل الأدعج العينين: الله أكبر فردد الفتى وراءه: الله أكبر وكذا المرأة خلفهما... ركع الرجل الأزهر الوجه ثم سجد والمرأة والفتى يتابعانه .

وحول «زمزم» تساءل رجل قدم مكة حديثاً :

-هذا دين لم نعرفه من قبل .
أجاب رجل هاشمي :
هذا ابن أخي محمد بن عبدالله و امرأته خديجة وهذا الفتى على بن أبي طالب و ما على وجه الأرض من يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .
ساد الوجوم ووجه الرجال وهم يراقبون موكباً صغيراً يغادر الكعبة حتى تواري خلف جدران البيوت .
و تمر الأيام و تمر الشهور و يكبر الحمل .. و يتألق وجه خديجة بالنور .. يشتد سطوعاً ... و تبدأ الأم المخاض .
و بين صخور «حراء» كان محمد يتأمل مكة، يفكر في مصير العالم و طريق الإنسان .
بدا وجهه حزيباً كسماء مزدحمة بالغيوم ... يفكر في قومه .. يحزن من أجلهم .. يريد أن يفتح عيونهم على النور الذي اكتشفه فوق الجبل، لكنهم صدوا عنه ... اعتادوا حياة الخفافيش في الظلام ... أعرضوا عن ملكوت السماوات .. فسقطوا في حضيض الأرض ...
صاعوا بين عناصر التراب و الطين .
لن يدعوا شيئاً إلا و فعلوه .. آذوه .. سخروا منه .. عبّروه . قالوا :
إنه ساحر كذاب .. أبت سيموت و يموت ذكره .. فليس له ولد .
شعر بسكين حادة تفوس في قلبه و هو يتذكر سخريتهم منه .. ينادونه بالأبتر . النبي يفكر في قومه حزيباً حزن نوح و ابراهيم و موسى و عيسى بن مريم . آخر الأنبياء يفكر غير ملتفت لما يجري حوله .
تكهرب الفضاء .. غلالة شفاقة كالضباب تملأ المكان .. و قد غمر الصمت جميع الأشياء .. اختفت الأصوات .. تلاشت و لم يعد «محمد» يسمع شيئاً سوى كلمات .. تنفذ في أعماقه نفوذ النور في المياه الراكدة ..
كلمات مؤثره عميقة جف لها ريقه .. تصيب لها جبينه .. فيدا كحبات لؤلؤ منثور .. الكلمات تضيء في أعماقه كالنجوم :
-أنا أعطيتك الكوثر . فصل لربك و انحر . أن شانك هو الأبتر .
و انقلب الرسول إلى بيته فرحاً .. و لما دخل على زوجته وحدها هي الأخرى فرحة .. تنظر اليه بعينين تفيضان حباً .. هتفت بصوت بشويبه اعتذار :
-إني وضعتها أنثى و ليس الذكر كالأنثى .
تمتم النبي و هو يحتضن هدية السماء بحب :
-أنا أعطيتك الكوثر . اسميها فاطمة .. ليطمها الله من الشرور .
كلؤلؤة في حنايا صدفة بدت فاطمة بغمها الدقيق .. بعينها الواسعتين كنافذتين تطلّان على عالم واسع .. عالم يموج بالصفاء و السلام .
أضاء الأمل منزلاً صغيراً من منازل مكة .. و تفتحت فاطمة للحياة كما تفتتح الورود و الرياحين؛ و نمت في أحضان دافئة تنعم بقلبين يفيضان حباً لها و بنظرات تغمرها حناناً و رافة .
و كبرت فاطمة .. نمت و بدأت تعي شيئاً مما يجري حولها تنظر إلى أمها يغمره الحزن .. و ربما شعرت بمرارة تعتصر قلب أبيها و هي لا تعرف بعد سبباً لذلك .. تهفوا نحنو أمها تقبل أباها .. فتعود البسمة إلى الوجهن الحزينين ... و تشرق الفرحة من جديد كما تشرق الشمس من بين الغيوم لتغمر الأرض بالدفء و النور و الأمل .
و تمر الأيام .. و تنمو فاطمة .. و يعصف القدر بقسوة .. و تجد الطفلة نفسها بين ذراعي والدتها في وادٍ غير ذي زرع .. حيث أيام الجوع و الخوف و الحرمان ..
تضغي إلى أنات المظلومين .. و تتأمل سيوفاً مسلولة في الظلام . كبرت فاطمة في الشيعب . فطمت اللبن و درجت فوق الرمال . و مرّ عام .
و مر بعده عامان آخرين .. فجأة اختطف القدر أمها .. فقدت نبعاً ثراً من الحب ...
فاطمة تبحث عن أمها . تسأل أباها الحزين .
-أبه أين أمي؟
ويجيب الأب المقهور و هو يحتضن ذكره الغالية :
-أمك في بيت من قصب لا تعب فيه و لا نصب .
تلوذ بالصمت .. تفكر في أمها . عينها تبحنان عن نبع سماوي ولكن دون جدوى .
كبرت فاطمة في زمن الحرمان .. في زمن الحصار .. في زمن اليتيم .. في زمن القهر .. لهذا نشأت الطفلة نحيلة القوام كغصن كسير ..
رسم القهر في عينها الواسعتين لوحة حزينة منظرًا ساكناً يغمره الصمت .. تفكر .. تنطوي على نفسها في استغراق يشبه صلاة الأنبياء .. نشأت فاطمة في زمن الجذب .. فغداً عودها صلياً صارياً في الأرض جنوراً بعيدة الغور .. فبدت أكبر من سنّها و نهضت تملأ فراغاً هائلاً أحدثه رحيل والدتها .. نهضت سيده صغيرة .. أما رؤوماً لوالدها الذي أضحي وحيداً .
و تمر الأيام .. و ذات مساء خرج المحاصرون في «الشعب» إلى مكة . عادوا إلى ضجيج الحياة لتبدأ فصول أخرى من تاريخ مثير يزخر بالأحداث .. منذ الساعة التي التقت فيها السماء بالأرض في غار حراء .

القسم 2

ملأ رغاء الجمال فضاء مكة، فقد آبت القوافل التي انطلقت إلى اليمن، في رحلة الشتاء؛ كان الجو بارداً و السماء تزدهم بغيوم رمادية؛ و صخور الجبال الجرداء بدت و كأنها تتضرع إلى السحب تنشد لها فطرات المطر .
و شيئاً فشيئاً خفت الأصوات و آبت الطيور إلى أو كارهها ساعة المغيب، و بدا البيت خالياً موحشاً كصحراء مقفرة؛ كانت «فاطمة» مستغرقة في تفكير عميق تطوف في خيالها سورة «مريم» تلك الفتاة البتول التي انقطعت عن العالم في صومعتها تعبد الله تتبتل اليه وحيدة .. تستكشف أفاق السماء متخفية من أثقال الأرض .
جلست فاطمة ترتقب أوبة أبيها، و بدا المنزل خالياً من كل شيء «لا زينب، و لا رقية» و لا «أم كلثوم» ذهبن ثلاثهن إلى بيوت أزواجهن؛ زينب استقرت في بيت «أبي العاص بن الربيع» و أم «جميل» اختلطت «رقية» و «أم كلثوم» لولديها «عتيبة» و «عتيبة»؛ و كل هذا يهون أمام مصيبة كادت أن تعصف بكل شيء .. لقد رحلت أمها .. «خديجة» ذلك النبع المتدفق حناناً و حباً و دفئاً ..
للك الله يا أمي .. ما كادت أعوام الحصار تمضي بأيامها الصعبة ولياليها المضنية حتى ودعتني الدنيا ليبقى والدي وحيداً و هو أشد الناس حاجة إلى من يؤازره ويقف إلى جانبه .. ولكن يا أمه ساجد نفسي لأملأ الفراغ الذي جثم على البيت بعد رحيلك . ساكون له بنتاً و أمّاً .. سامسح دموعه بيدين تشبهان يدك و سأبتسم له كما كنت تضيئين قلبه بابتسامتك .
ولكن يا أمه أنا ما أزال صغيرة لبتك صبرت قليلاً، أبي كان قوياً بك .. و كان يتحدى العاصفة بعزم «أبي طالب» شيخ البطحاء تكفله صغيراً وحماه كبيراً غير انكما تركتماه وحيداً و استرحتما من هم الدنيا و غمها و حق لكما أن تستريحا و قد عصفت بكما النوائب من كل مكان و سدّد لكما الدهر سهاماً مسمومة و حراباً . أجل يا أمي ... لقد اظلمت الدنيا بنشر المساء ستائره السوداء و هذا عامنا عام حزن .. ها أنا انتظر أوبة أبي .. أبي الذي يريد تبديد الظلام بنور الإسلام .. ولكن مكة ترفض ذلك .. تمنع و فيها من يحب حياة الظلمات كما الخفافيش لاتهوى النور و لا تحب النهار .
سمعت «فاطمة» خطى هادئة كنبضات قلبي يخفق أملاً، خطى تعرفها فاطمة .. لهذا هبت كفراشة تهوي إلى النور بقوامها النحيل بعينها الواسعتين سعة الصحراء وابتسامتها المشرفة بالأمل ...

ولكن لم تسمرت «فاطمة» في مكانها كأن خنجراً يطعن قلبها طعنة نجلاء ..
عاد أبوها حزيباً بدأ وجهه كسماً مدلهمة يسحب من رماد، كان ينفذ عن رأسه ووجهه التراب والأوساخ و تتم الرسول بحسرة :
-و الله ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه إلا بعد موت أبي طالب .
اهتزت «فاطمة» لهول ما ترى وبتت كسعبة أغضبتها الريح... يا لصبر الأنبياء... شعرت بالانكسار. كيف سوّلت لذلك السفية نفسه
أن يمس بالسوء وجهاً يسطع بالنور ...
بكت بانكسار.. وسالت دموعها حزينة حزن سماء تمطر على هون .
مسح الأب دموع ابنته ثم قال وعيناه تشعان أملاً :
-لا تبكي يا فاطمة.. ان الله ناصر أبك على أعداء رسالته .
انحسرت الغيوم عن السماء فبدت صافية مشرقة وعادت الابتسامة إلى الوجه الملائكي... ولكن عتباً كان يموج في قلبها :
-ترى أين كان فتى شيخ البطحاء... و هو لا يكاد يفارق أباه...
يتبعه كظله.. يدفع عنه أذى السفهاء من قريش و نسيت فاطمة كلّ شيء بعد أن ناداه أبوها فخفت إليه كحمامة بريّة تهفو إلى
عشها .
ابتسمت فاطمة... فانعكست ابتسامتها في وجه أبيها. ابتسم محمد.. أشرفت على قلبه شمس تغمره بالدفء و الأمل والحياة..
يالهذا الحورية الصغيرة ذكرى خديجة.. و باقة ورد من جنات السماء .
جلست فاطمة بين يدي والدها النبي زهرة تتفتح.. تتشرب كلمات الله . و تضيء الكلمات قلبها كنجوم في سماء صافية .
و تمر ثلاثة أعوام.. و نمت فاطمة.. و تفتحت للحياة كما تفتح الأزهار في الربيع .

القسم 3

شيء يلوح في سماء مكة.. لعلها خيوط مؤامرة تحوكمها قريش كما تحوك العنكبوت بيتاً هو أهون البيوت .
أبوجهل بدأ مرید الوجه غاظه محمد.. وقد أصبح حديث العرب في الجزيرة.. السيات تنهال على فقراء المسلمين، و الإسلام ينتشر
كنهر دافق تتناهل مياهه على الشيطان الرملية .
و أبوجهل لا يروق له ذلك.. غاظه رحيل محمد إلى الطائف يدعو قبائلها إلى دينه، و أفقده صوابه أن يبایعه رجال من يثرب ...
لقد مات أبو طالب و انتهت زعامته.. و اخفت خديجة و تبذرت ثروتها.. و أن لمحمد أن يموت ليتم هذا المتمرد الذي يريد تحطيم
الأصنام آلهة الآباء و الأجداد و حارسة قوافلنا و مصدر هيبتنا؛ ولكن كيف السبيل إلى قتل محمد.. إنه لمخ يعد وحيداً.. يحوطه رجال
أشد من الحديد بأساً.. أنه لا ينسى صفة حمزة صيد الأسود. ولكن
حمزة قد فر من مكة. ترك ابن أخيه وهاجر. و اذن فان كل شيء مهيباً للضربة القاضية. و يالها من فكرة رهيبه تفتت عن شيطان
مكة .
شمت «فاطمة» عيبير الوحي ورأت أباه وحبينه يتصب عرفاً.. اكتنفه جبريل بسرّه كلمات عظيمة يكشف له خيوط العنكبوت .
عمر الليل مكة.. ملأ أرقفتها بظلمة مخيفة؛ و بدت النجوم وهي تومض من بعيد لآلئ متناثرة فوق عباءة سوداء ..
تقاطر رجال من مختلف القبائل يخفون سيوفاً و خناجر كأشباح، الليل كانوا يمرقون خلف أبواب مكة الموصدة و أبوجهل ينتظر
اللحظة الحاسمة. لسوف يغمد شباب مكة سيوفهم في قلب محمد و ينتهي كل شيء .. و سيرى الحيرة بأدية على وجوه بني
هاشم... لقد قتل محمد وضاع دمه.. تفرق بين القبائل .
كان أبوجهل يعب خمرته منتشياً بفكرته.. ستبقى مكة تتحدث في أندية عن فطنة أبي جهل .
فرك شيطان مكة يديه وراح ينظر من خلال كوة تفضي إلى زقاق ملتو منتظراً عودة فتياته .
تتمت النبي بخشوع و قد استدعى ابن عمه علياً :
«وإذ بمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك... و بمكرون و بمكر الله و الله خير الماكرين .»
أن يصمد الرجال في المعارك يقاتلون حتى النفس الأخير فتلك شجاعة فريدة تدعو إلى الإعجاب.. ولكن أن يقدم المرء نفسه
للموت تتخطفه سيوف و خناجر فهذا لا يمكن أن تستوعبه أجدية ما مهما بلغت من دقة التعبير وسمو المعنى .
همس علي و هو يصغي إلى حديث رجل رافقه أكثر من عشرين سنة .
-أو تسلم يا رسول الله ان فديتك بنفسى؟
-نعم بذلك وعدني ربي .

كان علي حزيباً فمكة تتأمر على قتل انسان بعثته السماء لخلاص الأرض، ولكن حزنه تبدل إلى فرحة كبرى فتقدم إلى فراش
النبي بخرى هادئة و التحف ببردته ينتظر السيوف التي ستمزقه و ستندفق دماؤه نقيه طاهرة ترسم فوق الأرض قصة رائعة من
قصص الفداء .
كانت الأشباح المخيفة تتلصص من خلال شق في الباب فترى محمداً ما يزال يغط في نومه هادئاً .
-ما يزال نائماً .
-ولن يستيقظ بعد الليلة أبداً .
-سأعمد خنجري في قلبه .
-هذا الذي يسخر من ألهتنا .
تطلع أحدهم من شق الباب و عاد ليطمئن أصحابه :
-ننتظر حلبة شاة ثم ندهمه .
مثل طيف ملائكي أنسل النبي من بيته مهاجراً متجهاً صوب الجنوب لايلوى على شيء، و هو يدعو الله أن يحمي فتى الإسلام
علي :
-رب اجعل لي وزيراً من أهلي .
لم يخالج النوم عيني فاطمة تلك الليلة. هاهو والدها العظيم يودع مكة خائفاً يترقب... لا تدري عن مصيره شيئاً، و في فراشه ينام
فتى أبي طالب سوف تتخطفه سيوف القبائل... و الليلة حبل بالمفاجآت. ووجدت فاطمة نفسها تتضرع إلى الله أن ينصر أباه كما
نصر موسى من قبل و أن يحمي ابن شيخ البطحاء .
اقتحمت الضباع منزل النبي، و كانت السيوف و الخناجر تتجه إلى رجل نائم ملتجئاً برداً حضرياً أخضر .
هب الفتى من فراشه كاسد غاضب و انتزع سيف أحد المهاجمين الذين تسمروا في أماكنهم لهول المفاجأة. صرخ أحدهم :
-أين محمد؟
وجاءه الجواب ثابتاً ثابتاً جبل حراء :
-لست عليه وكيلاً .

تنفس الصبح و استيقظت مكة على أنباء مثيرة. لقد أفلت محمد وهاهو الان في طريقه إلى يثرب وانطلق فرسان أشداء يجوبون
الصحراء بحثاً عن رجل شريد .
لا أحد يعلم عن مكان النبي إلا فتى في العشرين من عمره، عاد لتوه من غار في جبل ثور حيث ودع النبي بعد أن أمن الطلب؛
عاد علي ينفذ عن نفسه عبار الطريق و يفكر في وصايا النبي. لقد بقيت عليه مهمة واحدة أن يؤدي الأمانات إلى أهلها و يحمل
القوائم وضعفاء المسلمين إلى يثرب ...

ابتاع علي «إبلاً»، وأسر إلى والدته فاطمة بنت أسد أن تنهياً للهجرة و تخبر فاطمة بنت محمد و فاطمة بنت حمزة و فاطمة بنت الزبير .
تحركت قافلة الفواطم بقودها علي ماشياً و التحقت بالركب أم أيمن و أبو واقد .
و تسلل ضعفاء المسلمين ليلاً إلى «ذي طوى» حيث واعدتهم علي هناك .
كان أبوواقد يسوق الركب سوفاً حثيثاً، و أدرك علي ما يموج في أعماق أبي واقد من الخوف و الهلع فقريش لن تغفر له ذلك أبداً .
هتف علي مهدتاً :
-إرفق بالنسوة يا أبا واقد .
وقرب (ضجنان) لاحت للقافلة ثمانية فرسان يثيرون الغبار... كانوا ملتئمين و عيونهم تبرق بالشر .
صاح علي بأبي واقد وأيمن :
-انتحيا بالإبل واعقلها .
الصحراء مد البصر تموج بالرمال و عليّ الذي أنهكه المشي هو رجل القافلة الأول فتى تعدّى العشرين بثلاث. كانت العيون تتجه إليه أمه تراقبه متوجسة. و بنت محمد تخاف عليه سيوف أعداء أبيها، و أبوواقد لا حول له و لا قوة. وقف علي وعيناها تقدحان شرراً .
هتف فارس لم يكتشف علياً بعد :
-أظننت يا غدار أنك ناج بالنسوة.. ارجع لا أبا لك .
-فإن لم أفعل؟ .
-لترجعن راعماً .
ودنا أحدهم من النوق لإثارتها. فاعترضه عليّ وهو بسيفه وسقط الفارس فوق الرمال .
تسمر الفرسان. لقد أخذتهم المفاجأة. انهم لم يروا في حياتهم ضربة كهذه. صاح أحدهم و قد رأى الفتى يستعد للهجوم :
-احبس نفسك عني يا ابن أبي طالب .
وهكذا دخل عليّ دنيا الفروسيّة، كما دخل دنيا الفداء قبل أيام .
وسارت سفن الصحراء تشق طريقها على مهل صوب يثرب، تسير ليلاً و تكمن نهاراً .

القسم 4

السيما مرصعة بالنجوم... تتلألأ من بعيد كلالئ منثورة .
خط المهاجرون عصا الترحال في «ضجنان» وانحنى علي يعالج قدميه و قد تفتطرتا من المشى مئات الأميال .
بركت النوق فوق الرمال تلتقط أنفاسها و تشم رائحة وطن قريب .
عينا فاطمة تسافران بين النجوم تستكشfan أفاق السماء... حيث انطلق أبوها في رحلة الاسراء و المعراج على ظهر البراق .
عينا فاطمة ما تزالان مسمرتين في النجوم، و قد أزهو وجهها كوكب صغير هبط على الأرض، وبدا القمر في آخر ساعات الليل أصفر الوجه كما لو أجهده السهر،همست فاطمة في نفسها تناجي :
-انت وحدك الباقي... كل شيء ء أخذ طريقه نحو المغيب، النجوم، القمر.. الأرواح البيضاء تتجه اليك لا تبالي بأشواك الطريق في الصحراء حتى لو كانت حافية القدمين ...
أنت وحدك الحق يا رب... أنت نور عيني و فرحة قلبي... دعني ألج ملكوتك اسبحك واطوف مع النجوم حول عرشك.. أنت وحدك الحقيقة و ما سواك وهم.. أنت وحدك نبع الحياة وعدادك يبراب يحسبه الظمان ماء .
في «قبا» هبط جبرئيل يحمل كلمات السماء إلى رجل فر من أم القرى يبئنه عن مسار قافلة فيها ابنته و امرأة ربته وفتى رباه في حجره فلما اشند ساعده وقف إلى جانبه يفديه بنفسه ...
فاح عبير الوحي... ملأ فضاء «قبا» حيث بنى الرسول أول مسجد في الإسلام :
« -والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السماوات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار. فاستجاب لهم ربهم اني لا أصعب عمل منكم من ذكر أو أنثى بعض فالذين هاجروا من ديارهم و أذوا في سبيلى و قاتلوا و قتلوا لأكرن عنهم سيئاتهم و لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله و الله عنده حسن الثواب .»
كان النبي يتربّ و وصول القافلة المهاجرة فيها أخوه و ابنته و امرأة ربته . كلمات جبريل ما تزال تطوف في خياله و هو ينظر إلى الأفق البعيد ولكن لاشيء سوى الرمال السمراء ...
ولو قدر لأحد كان في «قبا» لراى رجلاً قد ذرف على الخمسين ليس بالطويل و لا القصير كان ربعة «و قد جعل الخير كله في الربعة»؛ أزهو الوجه، ناصع البياض مشرباً بحمرة خفيفة لعلها من أثر الشمس و رياح الصحراء، رجل الشعر يبلغ شحمة أذنيه و يكاد يلامس منكبيه؛ واسع الجبين، مقوس الحاجبين كهلالين، و كانت عيناه تجلاوين واسعتين؛ اقنى الأنف، كان أسنانه لؤلؤ منضود فاذا مشى مشى الهوينى متقارب الخطى كزورق ينساب على هون .
وقف النبي يتأمل الصحراء المترامية تمسح عيناه الأفق البعيد، ينتظر أحبةً فارقهم في لحظة ليل وقد حاصرته ذئاب مكة .
غمر الليل الصحراء و أب النبي إلى مضارب «بنى سهم»، وقد بدا على وجهه حزن كحزن آدم يوم بحث في الأرض عن حواء .
وصلت القافلة بسلام، و خف الأب للقاء ابنته ذكراه الغالية من خديجة.. خديجة التي رحلت بعيداً و تركته وحيداً .
عانقت البنت أباه. عرفت في عبير رجل سماوي، فاضت عينها دموعاً، دموع فرح و دموع رحمة .
-يا لعذاب محمد.. يا لعذاب الأنبياء .
ربما دهشت بعض النسوة وهن يتطلعن إلى رجل ذرف على الخمسين يجتاز في لحظة نصف قرن من الزمن ليتحول إلى طفل يرتدى في أحضان أمه .
تمتم رسول السماء يضع حدّاً لأسئلة تناثرت فوق الرمال :
-فاطمة أم أبيها .
فاطمة بربيعها الثالث عشر تتحول إلى أم لأعظم الأنبياء .
-و فاطمة بضعة مني .
نظر محمد إلى عيني ابنته كان يبحث فيهما عن فتى شرى نفسه لله .
-انه هناك يا أبة.. تشققت قدماه.. سال منهما الدم.. الشوك والرمضاء و مشاقّ الصحراء... و لا ناقة عنده و لا جمل .
تألقت عينا النبي :
-انه أخي .
مضي محمد للقاء أخيه المهاجر ..
وهي الفتى للقاء رسول السماء.. نسي آلامه .
رثن الرسول كفيه برحيق النبوة ثم مسح على قدمي الفتى المهاجر، كأمر رؤوم تمسح رأس وليدها ليغفو و ينام ..
سافرت الآلام و وجد علي نفسه في مهد أمه في أحضان رجل رباه صغيراً... فغفا و نام، ونهض الرجل المكى تاركاً وليد الكعبة يلتقط أنفاسه بعد رحلة مريرة في رمال الصحراء .

القسم 5

دخلت القافلة يثرب وانطلقت أناشيد الفرح تملأ الفضاء ...
طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جنت نورت المدينة مرحباً يا خير داع
وامتزجت كلمات الفرح مع زغاريد النسوة وارتدت يثرب حلّة جديدة .
و مرت «القصواء» تشق طريقها بين الجماهير و تناثرت كلمات رجاء هنا و هناك :
-انزل يا رسول الله على الرحب والسعة .
-دعوا «الراحلة» فإنها مأمورة .
وسارت «القصواء» حتى اذا وصلت بيت «أبي أيوب» شمّت
رائحة وطن فأناخت رحلها وبركت، وفي تلك البقعة من أرض الله ارتفعت قواعد مسجد قدر له أن يصنع التاريخ و الحضارة .
و تساءل بعض المسلمين ترى كيف ندعوا إلى الصلاة. قال أحدهم :
-نفخ باليق كما يفعل بنو قريظة... ألسنا نتجه في الصلاة إلى قبلتهم؟ .
-الناقوس أفضل... ناقوس النصارى له صوت ساحر ..
و كان للسماء رأي آخر... هبط جبريل يحمل النداء، ان الله يأمركم أن ترفعوا الأذان ..
و تفرقت في جنبات المدينة كلمات السماء و كان بلال يدعو المسلمين: الله أكبر حي على الفلاح حي على الصلاة .
و تمر الأيام، و يشتد عود الإسلام؛ و نمت فاطمة... تفتحت للحياة الجديدة.. حياة تنبض بدفء الايمان و الأمل... و أبوها محمد يرسم الطريق الذي يمر عبر يثرب قلب العالم .
توالت الأحداث و تستيقظ جزيرة العرب على انباء ستغير مسار التاريخ. اتجه المسلمون إلى الكعبة في الصلاة بعد ما كانوا يتجهون إلى بيت المقدس... و اغتاط اليهود... ثم ولد رمضان... رمضان الكريم، و أصبح للمجتمع الوليد أعياد فرح.. عيد «الفطر» و عيد «الأضحى» و تدفق نهر الزكاة يطهر الأغنياء و يحيي الفقراء؛ ثم هبت المدينة لتشارك كلها فرحة النبي و الذين آمنوا معه .
كبرت فاطمة سيدة النساء... أم أيها... نفسي التي بين جنبي... و فاطمة بضعة مني ...
مضى «أبو بكر» و هو يحث الخطى إلى منزل النبي... وفي قلبه أمنية طالما حدت بها نفسه. لاشك أن رسول الله سيقبل طلبه فهو صاحبه الذي هاجر معه فاراً من مكة... و تحمل معه مشاق الهجرة و مخاطر الطريق... ثم انه قد زف إليه ابنته عائشة وهي ما تزال صغيرة بعد... و أي شرف عظيم من ماهرة رسول الله ...
طرق «الصحابي» الباب برفق... جلس قبالة النبي ...
-جئتك خاطباً يا نبي الله .
تمتم النبي :
-أمرها إلى ربها .
نهض «أبو بكر» و استأذن بالإنصراف... و في الطريق كان أبو عائشة يفكر- ألا يكون قد أغضب النبي فينزل فيه وحي من السماء .
وسمع «أبو حفصة» بقصة صاحبه فاستيقظت في نفسه رغبة سرعان ما استجاب لها جوارحه ...
مضى «عمر» مسرعاً نحو منزل «الرسول» و استأذن في الدخول عليه... انه لا يجب الانتظار أكثر من ذلك فقال على الفور :
-جئتك خاطباً ابنتك فاطمة .
قال النبي :
-انتظر بها أمر الله ...
و هيمن صمت ثقيل.. و نهض «أبو حفصة» بعد أن استأذن النبي و غادر المنزل مثقل الخطى و وجد نفسه يمضي إلى منزل صاحبه «أبي عائشة» ربما ليتحدث معه بشأن «فاطمة»، ترى من سيحظى بهذا الشرف الرفيع... من سيفترق بسيدة نساء العالمين .

القسم 6

نسيم عليل كان يداعب سعفات النخيل، يحركها برفق، و ظلال وارفة تنتشر تظلل أرض رجل من «الأنصار».. كان علي ما يزال منهمكاً بارواه نخلات باسقات يحمل المياه على بعير له بأجر... و قد تصبب عرقاً ...
جلس الفتى الذي بلغ من العمر خمسة و عشرين سنة... جلس يلتقط أنفاسه... أسند جذعه إلى جذع نخلة ميساء و طافت أمامه آيات من القرآن ...
« رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير . »
من بعيد لاج له رجلان قادمان كانا يحثان الخطى... سرعان ما عرفهما. عرف أولاً عمر يعرف طريقته في المشي، ثم تعرف «أبا بكر» لأنه طالما شاهدهما معاً... فهناك ما يشبه الصداقة بينهما ...
تمتم أبو عائشة :
-يا أبا الحسن.. لم تبق خصلة من خصال الخير إلا و لك فيها سابقة و فضل.. و أنت من رسول الله بالمكان الذي قد عرفت من القرابة و الصحبة و السابقة... فما يمنعك أن تذكرها لرسول الله و تخطبها منه .
قال عمر دون مقدمات :
-و قد خطبها الأشرف من قريش فردّهم... و أظنه قد حبسها من أجلك .
أمسك «أبو بكر» بخيط الحديث :
-ما الذي يمنعك يا علي أن تذكرها !!
تمتم علي وقد لاحظ في عينيه غيوم ممطرة :
-والله إن فاطمة لموضع رغبة .
و أردف و هو يقلب يديه :
-ولكن يمنعي قلة ذات اليد... أنا لا أملك من حطام الدنيا سوى سيف و درع و هذا البعير .
قال أبو بكر متأثراً :
-إن الدنيا لدى رسول الله كهباء منثور .
و قال عمر و هو يحته :
-اخطبها يا علي تزدد فضلاً إلى فضلك .
سكت علي و طافت في عينيه أحلام جميلة .

نهض علي الى ساقية قريبة وراح يتوضأ، أشاعت برودة الماء السلام في روحه؛ و أدرك الشيخان ان «علياً» قد حزم أمره، فقادرا المكان وقفلا عائدين .

كان «النبى» جالساً في حجرة أم سلمة، و كان عبير الوحي يطوف في سماء المكان .
ارتفعت طرقات على الباب... وهتفت أم سلمة :
-من الطارق؟

قال النبي و قد عرفه :

-افتحي له.. هذا رجل يهبه الله و رسوله .

فتحت أم سلمة الباب... و تريت «الطارق» ريثما تعود «أم المؤمنين» إلى خدرها :

-السلام على رسول الله .

-وعليك السلام يا أباالحسن .

جلس ربيب النبي مطرقاً.. تلالات حبات عرق فوق جبينه الواسع... كلمات تطوف في أعماقه.. و قد انتصب الحياء سداً كصخرة صماء تقطع تدفق الساقية .

أدرك النبي ما يموج في أعماق على، فقال والبسمة تطفح فوق وجهه :

-يا أباالحسن كأنك أتيت لحاجة فقل حاجتك. انفتحت أمام الفتى كوة من أمل و وجد نفسه يقول :

-يا رسول الله... إن الله هداني بك و على يدك و قد أحببت أن يكون لى بيت و زوجة أسكن اليها و قد أتيتك خاطباً ابنتك فاطمة .
كانت أم سلمة تنظر إلى وجه النبي، فرأت بسمة تطوف في محياه. قال النبي :

-يا علي انه قد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها، فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن على رسلك حتى أدخل عليها .

نهض النبي، و نهض علي إجلالاً له .

-يا فاطمة .

-ليبك يا رسول الله .

-ان على بن أبي طالب من قد عرفت قرابته و فضله و إسلامه.. و إني قد سألت ربي أن يزوجك خير خلقه و أحبهم اليه؛ و قد ذكر من أمرك شيئاً فما تزين؟

أطرقت فاطمة و كانت علامة رضا تطوف فوق وجهها تغالب مسحة حياء صبغت و جنتيها بحمرة خفيفة كشمس صباح باسم .

هتف النبي مستبشراً :

-الله أكبر سكوتها رضاها .

تدقق ينبوع فرح في بيت أم سلمة. طاف الخبر السعيد منازل المدينة كفراشة تدور ، تحطّ هنا و ترفرف هناك؛ و حلّقت في الأفق أحلام العذارى؛ و شيم بعض أهل «الصفة» رائحة وليمه عرس .

قال النبي و هو يتطلع إلى صوره :

-هل معك شيء أزوجك به؟

عرض الفتى بضاعته المزجاة :

-سيفي و درعي و ناضحي .

-أما سيفك فالإسلام يحتاج اليه و أمّا ناضحك فتتضح به على نخلك و تحمل عليه رحلك، ولكني رضيتُ بدرعك .

و انطلق على عارضاً درعه على من يشتريه و سرعان ما وجد له مبتاعاً... اشتراها منه «عثمان» و أقبل الفتى يحث خطاه إلى منزل النبي، فصب الدراهم بين يديه و كانت أربعمئة درهم .

انطلق علي بهيئ منزله الجديد و صورة فاطمة بربيعها الخامس عشر ما تزال تطوف في عينيه، و شعر بأن نبعاً من مياه باردة يتدفق في قلبه :

نشر أرض الحجر برمل لين، وراح يمسح عليه بكفه فيدا كإلاطة ناعمة، و تبت خشية بين الجدارين في أقصى الحجر لتكون مشجياً للثياب.. و بسط فوق زاوية من الرمل جلد كبش، زينها

بوسادة من الليف... و هكذا تم بيت فاطمة بنت محمد .

أجل على بصره في الحجر... لا شيء ء يشد قلب المرأة... لا حير و لا فراش وثير ..ولكنه يعرفها جيداً، يعرف بنت النبي. انها ليست سوى نفسه الكريمة التي تأبى سوى حياة البساطة و الحياة الخالية من بهارج الدنيا الزائلة .

القسم 7

قال النبي و هو يناول بلالاً حفنة من الدراهم :

-ابتع لفاطمة طيباً .

والتفت إلى «أبي بكر» و ناوله حفنة أخرى :

-ابتع لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث، وخذ معك عمار بن ياسر ...

وانطلق جمع من صحابة النبي إلى السوق يشترون جهاز فاطمة .

كان السوق يرخز بمختلف البضائع... بضائع حملتها النوق من مكان بعيد ..

كان أبوبكر يجيل بصره في زوايا السوق و في قبضته دراهم معدودة... ماذا يمكنه أن يشتري بها... و بعد جولة مضنية دفعته قلّة ذات اليد إلى أن يتخير بضائع رخيصة الثمن فكانت: قميصاً بسبعة دراهم، و خمار بأربعة دراهم، فطيفة سوداء خيرية، سرير مزمل

بشريط، فراشان مصريان؛ حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم، أربعة وسائد من الجلد مما يديغ في الطائف و قد

حشيت بنبات طيب الرائحة... ستائر رقيقة من الصوف، حصير مصنوع من سعف النخيل، رحي، اناء نحاسى لغسل الثياب، سقاء

من الجلد، جرة خضراء و بعض الأثنية الخزفية. و حمل الصحابة جهاز فاطمة متوجهين إلى منزل النبي ..

راح النبي يقبل بيده أنية الخزف وعيناه تتفحصان جهاز سيدة نساء الأرض فتمتم بصوت أقرب إلى الحزن :

-بارك الله لأهل بيت جل أنبتهم من الخزف .

ربما تذكر خديجة تلك المرأة الثرية التي كانت القوافل التجاربه تحمل ثروتها من بلد إلى بلد وهاهى ابنتها ترف بجهاز من الجلد و الخزف و النحاس.سرعان ما طفت الابتسامة فوق محياة و هو يرى ابنته قادمة، فنهض من مكانه و قبل يدها وراح ينظر إلى وجهها

المضى ء يستشرف من وراءه صورة زوجته الوفية و ملامح أمه الرؤوم .

ارتفع صوت بلال جهورياً يدعو المؤمنين للصلاة؛ الكلمات تنساب هادئة مؤثرة مفعمة بالحب و الأمل و الحياة؛ و يشعر النبي بأن نبعاً

فيأض يتدفق في صدره و يشيع السلام في قلبه فنهض مليبياً داعي الله .

المسجد مكتظ بالمسلمين، ينتظرون قدوم «الرسول» ليس للصلاة فقط بل لشئ ء آخر. ان النبأ قد أثار استعراب الكثير؛ يريدون

استكشاف هذا الزواج الفريد. ان فتاة مثل فاطمة كان بإمكانها أن تتزوج ثرياً يفرش دربها بالحريير... صحيح ان ابن أبي طالب مثال

للقوة و هو ابن عم النبي ولكنه لايملك شيئاً. لقد هاجر حافياً و ما يزال يعيش حياة مريرة لايملك شيئاً... ولكن ما بال فاطمة

ترضى لنفسها مثل هكذا حياة ..

كان الهمس يدور على الشفاه. تحلق المؤمنون حول «النبي» كعادتهم، كفراشات تنظر إلى شمعة توهج. أدرك النبي ما يجول

في الخواطر فقال بخشوع :

-أتانى حبيبي جبريل فقال: يا محمد زوجها على بن أبى طالب فإن الله قد رضيها له و رضيه لها .

وانفض المسلمون و قد ترسخت في ضمائرهم صورة جديدة عن الحياة العائلية عندما تنهض على الايمان وحده. لقد اختارت السماء لعلی فاطمة و اختارت لفاطمة علیاً، و استجابت فاطمة لإرادة السماء طائعة مبتهجة ان شینا في أعماقها يشدها إلى علی كما شد علیاً لفاطمة. و باركت السماء رغبة علی واستجابة فاطمة، و ررفت الملائكة بأحنتها مئی و ثلاث و رباع. وجد علی في فاطمة ما كان يبحث عنه في نفسه، ووجدت فاطمة في علی ما كانت تنشده في أعماق روحها، و كان اللقاء علی يد رسول السماء إلى الأرض.. إلى المرأة وإلى الرجل، ليكون اتحادهما ولادة للإنسان.

وهكذا قدر لأنیس الطفولة أن يكون رفيق درب. كانت فاطمة سعيدة بعلی، ترى في عینه طیف أبیها.. أبیها الذي تحبه لأنه قادم من عند الله.

أحبت فاطمة علیاً.. أحب فكره و خیاله، رأت فيه ظلال محمد... حيث نشأت تحت تلك الظلال... أرادت أن تنتقل من بیت والدها إلى كنف رجل يشبه والدها في كل شيء.

جلس علی في بیته. استند إلى الجدار الطینی، و قد غاصت أصابع قدمیه في الرمل اللین الذي یغطي أرضیة الحجره... كل شيء في البیت ينتظر فاطمة... مشجج الثیاب... المخضب... الریحی.. حتی ذرات الرمل. فاحت رائحة «الأذخر»؛ ملأت فضاء الحجره عطرًا... و علی ما يزال یرقب قدوم فاطمة و قد مضت ثلاثة أسابيع حسبها علی قروناً طویلة.

لا بد من خطوة للقاء، وقررت في ذهن «الفتی» صورة «حمزة»، فنهض من فوره وحث الخیطی نحو منزل عمه.

القسم 8

مرّت أيام و أيام، و علی لا یفتأ یذكر فاطمة.. یعیش خیالها الشفاف؛ روحها الطاهرة؛ عینیه المضیتین؛ مشیتها وهي تخطر علی الأرض هونا ...

قال و هو یحدق في عینیه :

-في عینیک سؤال .

-یا عم ذكرت أهلی .

-ما تنتظر إذن.. هیا بنا إلى منزل النبی .

في الطریق لاحت لهما «أم ایمن» و قد أدركت علی الفور ما یدور في خلد علی فكفتهما مؤونه ذلك .

انطلقت «أم ایمن» و كان النبی في بیت أم سلمة .

قالت أم ایمن و قد عرفت کیف تستأذن قلب الرسول :

-یا رسول الله لو أن خدیجة باقیة لقرت عینیه بزفاف فاطمة ..

و إن علیاً یرید أهله.. فقر عین فاطمة بیعلها و أجمع شملهما وقر عیوننا بذلك. قال النبی :

-فما بال علی لا یطلبها منی؟

-یمنعه الحیاة یا رسول الله ...

كانت علینا النبی تیحنان عن خدیجة... تجمعت في عینیه الدموع کفیوم ممطرة :

-خدیجة... واین مثل خدیجة، صدقتنی حین کذبتنی الناس و أرزنتنی علی دین الله و أعانتنی علیه ..

وقفت أم ایمن تنتظر رسول الله :

-انطلقی إلى علی فأتینی به .

خفت أم ایمن إلى حیث ینتظر الفتی :

-ما وراءك یا أم ایمن؟

-الخیر كله؛ رسول الله یدعوك .

كان علی مطرقاً برأسه یحدق في الأرض، قال النبی مشججاً :

-أتحب أن تدخل علیك زوجك؟

-نعم فذاك أبی و أمی .

نعم وكرامة یا أباالحسن أدخلها علیك في لیلتنا هذه أو في لیلة

غد إن شاء الله .

نهض الفتی و هو بطیر فرحاً. لقد حلت لحظة اللقاء؛ لقاء قلبین طاهرین.. روحین صافیتین ...

تمايلت سعفات النخيل طرباً.. تألقت في السماء النجوم؛ وظهر القمر بزدهي بهالته.. والسماء تنطلع إلى عرس في الأرض. تألقت فاطمة فیدت بین النسوة كوكباً درياً؛ حتی اذا استوت فوق الناقه، ارتفع صوت الدفوف، وبدأ موكب الزفاف یسير الهوینی .

فاطمة تحفها بنات عبدالمطلب و نساء المهاجرین و الأنصار، أخذ عمار بزمام الناقه و كان الرسول و صحبته حمزة و الرجال یمشون خلفها .

وملات الزغارید الفضاء وانطلق صوت أم سلمة یشدو فرحاً :

• سرن بعون الله جاراتنی واذكرن ما أنعم رب العلی فقد هدانا بعد كفر و قد انعشنا ربّ السماوات

• واشكرنه في كل حالات من كشف مكروه وأفات انعشنا ربّ السماوات انعشنا ربّ السماوات

• وارتفع صوت حفصة :

• فاطمة خیر نساء البشر فضلك الله علی كلّ الوری زوجك الله فتیّ فاضلاً فسرن جاراتنی بها أنها کریمه بنت عظیم

الخطر

• ومن لها وجه كوجه القمر بفضل من خصّ بأي الزمر أعني علیاً خیر من في الحضر کریمه بنت عظیم الخطر کریمه بنت عظیم الخطر

في المسجد كان اللقاء، أخذ النبی یدی فاطمة، و وضعها في یدی علی، و تتمم الرسول بخشوع :

-اللهم انهما أحب خلقك إلي، فاحبهما، و انی أعیدهما بك و ذریتهما من الشیطان الرجیم .

شهد البیت الصغیر ولاده حب عمیق عمق البحر، طاهراً كقطرات الندی، متدفقاً كالینیوع. لم تعثر فاطمة في بیته علی فراش وثیر لكنها وجدت قلباً دافئاً بنیض بالحب، و لم تجد فاطمة في منزلها الجدید جواهر أو لؤلؤاً منثوراً لكنها وجدت انساناً یموج بقیم تتألق سماوا و تشع رحمة، ووجدت فاطمة ما تنشده المرأة في أعماقها ...

وجدت كل ذلك قرب علی .

و وجد علی في فاطمة قیساً من أمه، فالزهراء تكاد تذوب رفة، وجد فيها رفيق دربه، ففاطمة شوق و حنین، ووجد فيها الخصب

والحیاة ففاطمة كوثر محمد .

طلب علی يد فاطمة؛ واطرقت فاطمة، وكان صمتها، و حمرة الحیاة تقولان نعم لعلی، و باركت الملائكة لقاء الشطرن لیؤلّفا كیاناً

جديداً فيه صفات حواء و خصال آدم .

وذات صباح جاء النبی زائراً و سأل فتاه :

-کیف وجدت أهلك؟

أجاب علی وعیناه تنطقان ثناءً .

-نعم العون علی طاعة الله .

و التفت النبي إلى فتاته :
 -و كيف وجدت بعلك؟
 فقالت بكلمات تقطر حياةً و حباً :
 -خير بعل .
 رمق النبي السماء. عَبَّرَتِ الأفلاكَ كلمته الدافئة :
 -اللهم ألف بين قلوبهما و ارزقهما ذرية طاهرة .
 و عندما هم بالنهوض قال الأب لفتاته :
 -يا بنية نعم الزوج زوجك... لا تعصى له أمراً، ثم شد على يد فتاه و قال يهدوء :
 -الطف بزوجتك و ارفق بها فان فاطمة بضعة مني يؤلمني ما يؤلمها و يسرنني ما يسرها .
 شي ء ما ولد في قلب علي تجذر في أعماقه، شي ء يشبه العهد... الميثاق ألا يغضب فاطمة أو يكرهها على أمر ما إلى الأبد .
 و في قلب فاطمة ولد الحب، تفجر نبعه و عند ما يحب المرء ينسى كل شي ء سوى الطاعة للحبيب .
 وهكذا عاش علي و فاطمة. و تمر الأيام .

القسم 9

كانت تشبه أباهما في كل شي ء، في حديثها، صمتها، مشيتها، وفي ذلك النور الذي يشع من عينيها، تعمل بصمت أو ترتل سورة مريم تتسربها.. تنفَسُ جوها و تعيش في ظلها .
 رتبت ثيابها و كانت قليلة مختصرة. وضعتها فوق خشبة كان زوجها قد ثبتها في زاوية الحجرة، نشرت خامرها و قطيفة سوداء و قميصاً رخيصاً، رتبت الفراش ثم عمدت إلى كنس البيت. و تصاعد غبار خفيف كان يتألق في ضوء الشمس .
 مسحت كنبزان الخرف و أعادت ترتيبها فبت جميلة .
 حاولت أن تجر الرحي إلى مكان مناسب. ووجدتها متشبثة في الأرض فتركتها مكانها ريثما يعود زوجها .
 و من كيس في زاوية الحجرة استخرجت حفنات من الشعير ثم جلست إلى الرحي .
 دارت الرحي، تساقط الدقيق تباعاً فجمعه في اناء صغير، أضفت قدحين من الماء وراحت تعجن الخليط حتى اذا تجانس غطت الاناء و تركته ريثما يصبح خميراً .
 جلست فاطمة و أشعلت النار في الموقد، تصاعد دخان أزرق و توهج جمر فسفوري الحمرة، كانت عيدان الحطب تتكسر، و كانت فاطمة تصغي مستغرقة، سرت في أطرافها فشعيرية و تجمعت في عيناها الدموع فرمقت السماء من خلالها و قلبها ينبض أملاً بما وعد الله المؤمنين. ملأت رائحة الخبز الحار فضاء البيت .
 عاد علي و قد بدا مهموماً بعض الشيء ء و عندما وقعت عيناه على فاطمة شاعت الابتسامة في وجهه. لشد ما يحبها بقوامها النحيل يتلك الروح التي تكاد تغادر أهاب البدن إلى حيث تفرق الملائكة .
 نظر علي و هو يتناول قرص الشعير إلى يديها. كانت هناك خطوط حمراء في كفيها أدرك على الفور أنّها من أثر الرحي؛ تمنى أن يكون بوسعه شراء خادم تعينها على تدبير المنزل، فكر أن يضاعف جهده في حفر الآبار، سيحيل المدينة إلى ينابيع لكي يتسنى له جمع مبلغ يكفي لشراء جارية تعين سيدة النساء؛ و ربما حصل على غنيمة تغنيه عن كل ذلك، كان علي يفكر و هو يعالج سيفه ذي الفقار .
 لم تسأل فاطمة زوجها عن المناسبة في كل هذا الاهتمام بالسيف فقد سمعت هي الأخرى عن استعدادات المسلمين للتصدّي لقوافل قريش التجارية و سمعت من بعض نسوة المهاجرين اخباراً عن قافلة كبيرة يقودها أبوسفیان تحمل أموالاً طائلة... تذكرت فاطمة كيف صادر المشركون أموال المهاجرين. تذكرت أيام الحصار في شعب أبي طالب و ألوان القهر والظلم الذي صبه أبوسفیان و أبوجهل و أبولهب على الرسول والذين آمنوا .
 أفاق فاطمة على صوت زوجها و هو يرتل بخشوع :
 -يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله و كفر به، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل .
 لكأنّ على يدك ما يدور في خلد فاطمة، وهاهي السماء تشدّ أزر المظلومين المشردّين... تمنحهم سيوفاً و بيارق ينتصفون بها ميم قهروهم و شردوا بهم من ديارهم .
 ودع النبي ابنته فاطمة. وأدرك المسلمون جميعاً أنّ الرسول قد أعدّ العدة لاعتراض قافلة قريش، وأنّه لم يبق له في المدينة شي

٤
 هزّ علي راية العقاب بيده وانطلق بصحبة النبي باتجاه الشمال حيث «وادي الروحاء» وسمّع النبي يقول :
 -هذا أفضل أودية العرب .
 عسكرت قوات المسلمين و كانت تتألف من ثلاثمائة مقاتل يتناوبون على ركوب سبعين من الأبل إضافة إلى فرسين فقط، و بعد استراحة وجيزة، قضاها المسلمون في الصلاة و التهيؤ لقطع المسافة لأبار «بدر» حيث طريق القوافل التجارية .
 قسم النبي الأبل على المقاتلين فكان نصيبه مع علي و «أبي مرشد» بغيراً واحداً يتناوبون ركوبه .
 قال علي وأيده أبومرشد :
 -نحن نمشي عنك يا رسول الله .
 أجاب النبي و هو يطوى الصحراء ماشياً على قدميه :
 -ما أنتم بأقوى مني، و لا أنا بأعنى عن الأجر منكما .
 وفي «الصفراء» بعث النبي دورية استطلاع إلى «بدر» .
 وفي «وادي ذفران» وصلت انباء منيرة .

القسم 10

مكة يغمرها الظلام؛ والنجوم ترسل ضوءاً واهناً... تنبض من بعيد كقلوب مجهدة؛ نامت العيون ما خلا عيوناً حجرية تحيط بالكعبة ما تزال مفتوحة تحدد ببلالها و غباء .
 وفي عالم هلامي كان رجل يركب بغيراً يخطر به حتى اذا وقف «بالأبطح» صرخ عالياً :
 -يا آل عدر انفروا إلى مصارعكم !
 خف البعير براكبه فوق ظهر الكعبة وصرخ :
 -يا آل عدر انفروا إلى مصارعكم .
 طار البعير نحو جبال مكة. هبط على قمة «أبي قبيس» و صرخ الراكب مرّة أخرى :
 -يا آل عدر انفروا إلى مصارعكم .

انزعع الراكب صخرة من الجبل ثم قذف بها بيوت مكة.. انفجرت الصخرة في أسفل الوادي وأضحت حجارة متناثرة تساقطت كشهب مجنونة فوق منازل مكة وأقينتها .

استيقظت «عاتكة» امرأة من بني عبدالمطلب. استيقظت مذعورة تجفف وجهها من حبات العرق، و ما تزال الرؤيا ماثلة أمامها . كانت السماء تنث مطراً خفيفاً كدموع هادئة، وظلت «عاتكة» مستيقظة تحدف في الظلام حتى اذا طلع الفجر أخذت طريقها إلى منزل «العباس» .

كفراق أسود يدور البيوت، شاع خبر الرؤيا في منازل مكة؛ وجم الوجوم على القلوب . ترى ماذا تخبئ الأيام. وهرع بعضهم إلى أصنام نحتوها يتمسحون بها يلتمسونها الطمأنينة فلا تألوهم إلا خبالاً؛ و قدم بعضهم نذوراً للالهة، تصاعد دخان لكن دون جدوى؛ القلق ما يزال يلوي القلوب كريح عاصفة .

غضب «أبو جهل» برقت عيناه حقداً و هو يصغى إلى تفاصيل الرؤيا و هتف بالعباس متهدداً :
-أما كفاكم يا بني عبدالمطلب أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!... سنتربص بكم ثلاثة أيام.. فان مضت و لم يكن شيء...
فأنتم أكذب بيت في العرب. رد العباس بغضب :

-يا مصفراً أسسته أنت أولى بالكذب منا .

مضت ثلاثة أيام؛ كصفحات من كتاب كبير تنطوي ويدت صفحة كبيرة من عالم مفتوح و ظهرت مكة، و يثرب و صحراء واسعة مليئة بالرمال و الحوادث، وظهرت خيول وابل ورجال تجوب الأودية . استيقظت مكة مذعورة... صرخات «مضمم» تبعث الرعب في القلوب الخطر يهدد الآلهة؛ و الهة قريش عبادة و تجارة :
-يا معشر قريش اللطيمة... أموالكم مع أبي سفيان قد تعرض لها محمد و أصحابه .

كان منظره عى يعبر مجدوع الأيف، مشقوق القميص إنذاراً بالخطر الداهم. و ثارت الحمية جمية الجاهلية؛ صرخ أبو جهل :
-واللات والعزى ما نزل بكم أمر أعظم من أن يطعم بكم محمد و أهل يثرب فانفضوا و لا يتخلف منكم أحد .
و تجهزت قريش، اظهرت كل حقدتها الدفين تطلب رأس رجل هاجر إلى ربه .

تجمع الحاقدون فكانوا الفأ إلا خمسين، و من الابل ثلاثمئة و خمسون و من الخيل مئتان .
وسارت قريش بخيلها و خيلاتها بدفوفها وقيانها بخمرتها وألقتها، سارت تشق بطون الأودية .
وفي الصحراء كان أبوسفيان يقود القافلة، يسوقها سوقاً حثيثاً، عيناه تدوران في محجريهما؛ تسعان الأفاق؛ تترصدان الآثار. و بين الفينة و الأخرى كان يتوقف ليدقق في أثر يعبر أو فرس، أو يفتت بكرة يبحث فيها عن أثر لغريم يترصده. ينتظر لحظة النار المقدس ولكن لا شيء، الصحراء غامضة غموض البحر و الرمال هي هي بتموجاتها و السماء تزدهم بغيوم رمادية تمر فوق الرمال كسفن تائهة .

كانت القافلة تتقدم من آبار بدر، وقد عصف القلق بأبى سفيان وأطل الرعب من عينيه يخشى أن يسقط في قبضة محمد عدوه اللدود .

سأل أبوسفيان اعرابياً قرب الماء عن خبر محمد، أجاب الاعرابي :

-لم أر أثراً لما تقول، ولكني رأيت رجلين يستقيان في الصباح .

-وأين مناخهما .

-هناك فوق ذلك التل .

أسرع أبوسفيان إلى حيث أشار الاعرابي .

-نعم هذا مناخ ابل ...

وحانت منه التفاته فرأى بكرة فالتقطها كما يلتقط المرء جوهرة نادرة، فركها بكفيه فظهرت نواة تمر، صرخ أبوسفيان مرعوباً :

-هذه واللات علائف يثرب .

أسرع أبوسفيان إلى مناخ قافلته فحث رجاله على ائارتها والاتجاه بها نحو ساحل البحر الأحمر، غادرت القافلة تاركة «بدر» إلى شمالها ممعنة بالفرار، وهكذا أفلت أبوسفيان ولو إلى حين .

القسم 11

هطلت الأمطار... هطلت بغزارة فسالت أودية بقدر، وقف النبي... راح ينظر إلى السماء و السحب تسح ما تسح من دموعها التقال... رفع يديه إلى عوالم لإنهائية و تضرع إلى الله :

-اللهم نرك الذي وعدت... اللهم لا تغلبنى أباهل فرعون هذه الأمة .

كان الوجوم يسيطر على ثلاثمئة رجل. لقد خرجوا لمواجهة قافلة تجارية، وهاهي الأنباء تحمل لهم سيوفاً و خناجر... و هاهي قريش تزحف نحوهم بجيش عرمرم.. ألف رجل إلا خمسين .

هتف النبي بأصحابه :

-أشيروا على :

القلق يعصف بالرجال و قد ضرب الخوف أطنابه في بعض القلوب... نهض «عمر» قائلاً :

-يا رسول الله.. انها قريش!! ما دلت منذ عزت و ما أمنت منذ كفرت ..

راح بعضهم ينظر إلى بعض وأفندتهم هواء .

نهض المقداد وقد امتثلت أمامه قصص بني اسرائيل :

-يا رسول الله! امض لما أمرك، فيجن معك، والله لا نقول كما قال بنو اسرائيل لموسى... اذهب انت و ربك فقاتلا أنا هاهنا قاعدون، اذهب أنت و ربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون .

أطل عزم جديد من عيون الرجال وخيم صمت ثقيل، كان النبي ينتظر موقف الأنصار فله معهم يوم العقبة عهد و ميثاق .

نهض «سعد بن معاذ» و قال بأدب :

-لكأنك تريدنا يا رسول الله :

-أجل .

انسابت الكلمات قوية أخاذة مؤثرة :

-يا رسول الله: لقد أمانا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جنت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدونا و موثيقنا على السمع و الطاعة.. فامض يا رسول الله لما أردت.. فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .

إن للكلمة في القلوب أثر البذرة في الأرض الخصبة سرعان ما

تنمو و تهب ظلالتها و ثمارها ...

اشاعت كلمات سعد روح الأمل شحذت الهمم بعد خوف وقلق... طافت في الوجه السماوي فرحة ورضا وهتف النبي برجاله :

-سيروا علي بركة الله و اشيروا، فإن الله وعدني احدى الطائفتين، والله لكأنى انظر إلى مصارع القوم .

عبأ النبي قواته و غادر «ذفران» وسلك طريق «الإصافر» ثم هبط منها، وبدا «كثيب السحنان» كجبل شامخ. وقاد النبي رجاله الى يمين «الكثيب» حتى اذا أصبح قريباً من مياه بدر أصدر أمراً بالتوقف ريثما ينجلي الموقف .

بعث النبي «علياً» على رأس دورية استطلاع للحصول على معلومات عن قوات قريش، أوغل على في المسير و وصل آبار بدر؛

فالماء حيوي لرجال في الصحراء، وألقت الدورية القبض على رجلين كانا يستقيان و ساقتهما إلى معسكر المسلمين .

كان النبي يصلي... مستغرقاً في رحلة في عوالم سماوية بعيداً عن ويلات الأرض و ما يجري فوق كثبان الرمال، ولما عاد إلى الأرض وجد بعض المسلمين ينهالون عليهما ضرباً... تتم النبي مستنكراً :

-إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟! !!

ونظر النبي إليهما وهتف :

-صدقا والله.. انهما لقريش.. انهما لذات الشوكة .

وأردف متسائلاً :

-كم القوم؟

-كثيرون .

-ما عدتهم .

-لا ندري .

-كم ينحرون؟

-يوماً تسعاً و يوماً عشراً .

التفت النبي إلى أصحابه :

-القوم ما بين تسعمائة والألف .

ثم تساءل :

-فمن فيهم من أشرف قريش؟

-قال أحدهما :

-عتبة بن ربيعة و أخوه شيبه.. النصر بن الحارث، وأضاف الآخر :

-و فيهم أمية بن خلف و نبيه بن الحجاج و أخوه منبه و عمرو بن ود ..

التفت النبي إلى اصحابه و قال يحزن :

-هذه مكة قد ألفت اليكم أفلاذ كبدها .

تفجر في قلوب المهاجرين غضب مقدس وهاهي رؤوس الشرك تزحف إليهم و قد جان وقت يثار فيه المظلوم من الظالم .

كان بلال منسجياً داخل نفسه و قد تداعت في أعماقه صور سوداء و كان وجه «أمية بن خلف» محفوراً في ذاكرته بقسوة.. ما يزال جسده ين من سياط أمية و شعر ينقل صخرة رهيبه تجثم فوق صدره فندت عنه أهة ألم :

-أه.. أمية لا تجوت إن نجا .

برقت عيناه غضباً و حانت منه التفاته فرأى عميراً، و قد علت وجهه مسحة من وجوم... أدرك بلال ان صاحبه هو الآخر يستعيد حوادث رهيبة. لقد شهد مصرع والديه بحراب «أبي جهل» ذلك القرشي المتوحش .

أصدر النبي أمره بالتحرك صوب أبار «بدر» حتى اذا وصلوا أدنى المياه نزل النبي و كان «الحباب» و هو رجل رشيد يمسح الأرض بعينين تأفتين، اقترب من النبي و قال بأدب :

-يا رسول الله! أكان اختيارك للمكان أمراً من الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب؟

أجاب النبي باهتمام :

-بل هو الحرب و المكيدة .

-ليس هذا بمنزل يا رسول الله... انهض بالناس حتى نعسكر أدنى الماء نشرب و لا يشربون .

-لقد أشرت بالرأي .

و سرعان ما اتخذ المسلمون مواقعهم في الجهة الشرقية من الوادي الفسيح ...

حل المساء وغطت العيون تتربق ما يسفر عنه عالم الغد .

القسم 12

أشرق يوم الجمعة و التاريخ يشير إلى السابع عشر من شهر رمضان. عسكرت قوات قريش، في ثنايا التلال القريبة من وادي بدر، وبدأ أبو جهل أفعى رقطاء تلمظ. هتف ساخراً و هو يشير إلى قلة المسلمين :

-ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم باليد .

تساءل عتبة بن ربيعة :

-ربما كان لهم كمين أو مدد .

-كلا يا صاحبي لقد بعثت «ابن وهب» و طاف حول مواقعهم فلم ير شيئاً .

قال شيبه معقياً :

-لكنه قال شيئاً آخر غير هذا .

امتعض أبو جهل، فتساءل عتبة :

-وماذا قال؟

-جاء ميهور الأنفاس و نثر كلماته كالنيل: ما رأيت شيئاً ولكني وجدت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا... نواضح يثر ب تحمل الموت الناقع .

أطرق عتبة. كان يفكر في المصير... ألقى أبو جهل نظرة حانقة و بصق على الأرض ثم غادر المكان .

ارتقى عتبة جملة الأحمر و قد دوت فكرة العودة إلى مكة في رأسه و أصغت عشرات الرجال إلي ما يقول صاحب الجمل الأحمر :

-يا معشر قريش! لن تصنعوا شيئاً بقاء محمد وأصحابه. و بين أصحابه رجال من بني عمومتكم أو أخوالكم.. و هل يقتل المرء ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته.. ارجعوا و خلووا بين محمد و سائر العرب ..

يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر، ان محمداً له إك و ذمة.. فان يكن صادقاً فأنتم أعلى عيناً به، و ان يكن كاذباً فكتكم ذؤبان العرب أمره .

حفظت عينا «أبي جهل» و خرجت الكلمات من فمه ممزوجة بالبصاق :

-انظروا ماذا يفعل الجين في النفوس... انظروا إلى سيد من سادات قريش و هو يرتعد من سيوف يثر ب .

وفي أدنى الوادي كان الرسول يراقب عن كثب ما يجري في أقصى الوادي... هناك على جمل أحمر رجل يحذر قومه سوء العواقب .

تمتم النبي بلهجة يشوبها اليأس :

-إن يكن في أحدكم خير ففي صاحب الجمل الأحمر .

اتصلت السماء بالأرض وهبط جبريل كوكب الأرض في تلك البقعة من دنيا الله... و سرت كلمات السماء في قلب محمد: «فإن جنحوا للسلم فاجنح لها .»

هتف النبي و جبينه يتلألأ :

-يا معشر قريش! ارجعوا من حيث أتيتم فلأن يلى هذا الأمر مني غيركم أحب إليّ من أن تلوه أنتم .

تمتم عتبة و هو بصغي إلى ابن مكة الذي فر منذ عامين :

-مارد هذا قوم ثم افلحوا .

تجمعت في السماء النذر، و بدت السيوف بروقاً مخزونة بالعودة، نزل عتبة عن جملة الأحمق، و تقدم مع أخيه شيبه وابنه الوليد إلى الأرض التي تفصل ما بين الجبهتين و نادى عتبة بصوت غاضب و كان أبوجهل قد استغزه :

-يا محمد أخرج البينا أكفاءنا من قريش :

التفت النبي إلى عبيدة .

-قم يا عبيدة بن الحارث .

و إلى حمزة بن عبدالمطلب و إلى علي بن أبي طالب .

كانت راية «العقاب» تخفق في قبضة علي فركزها في الأرض ثم انطلق إلى ميدان الصراع... و تراءى امام عينيهِ طيف جميل. كان وجه «فاطمة» يتسم له وقد شع من عينيها نور سماوي .

ران الصمت على الجبهتين، ما خلا ستة سيوف كانت تلمع وسط الغبار كبروق غاضبة، فجأة ارتفع السيف «ذوالفقار» ثم هوى فهوت معه جمجمة الوليد، ثم ارتفع مرة أخرى ليهوي على عتبة ثم على شيبه و تساقطت رؤوس الشرك... تعفرت بالرمال و كانت العيون جاحظة تنظر برعب إلى شي ء ما .

كبر النبي و كبر معه المسلمون و انتقل اسم عليّ على الألسن في الفضاء... وفي التاريخ ...

وسمع النبي يقول :

-والذي نفس محمد بيده لا يقاثلهم اليوم رجل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبرٍ إلا أدخله الله الجنة .

و تراءت للذين سمعوا كلمات الرسول جنات تجري من تحتها الأنهار... فإذا السيوف ظلال لجنة عرضها السماوات و الأرض .

كان سقوط صناديد قريش صرعى فوق الرمال إيذاناً ببدء معركة رهيبة. و بدأت قريش هجوماً عنيفاً و تساقطت السهام و النبال كالمطر ...

وقف المسلمون صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص، و صمدوا أمام هجمات مدمرة كعاصفة هوجاء... تصاعد غبار كثيف و تساقط القتلى والجرحى كجراد منتشر. و شيئاً فشيئاً خفت حدة الهجوم... وفي هذه اللحظة الحاسمة دوت كلمة القائد العظيم مختصرة و مصيرية :

-شدوا .

اندفع المسلمون كالسيل و كانت راية العقاب تخفق في قبضة على قوية ثابتة؛ و اختلطت أصوات عديدة بين سهيل الخيل ورغاء الجمال ووقعه الأسلحة وصيحات الرجال و كانت:«أحد... أحد...» تتردد في فضاء المعركة .

و تفجر غضب مقدس في القلوب و قد رأى المعذبون جلاذيتهم... و غادر النبي مقر القيادة و بقي أبو بكر وحيداً. اندفع النبي يقاتل في الخطوط الأولى و ظهرت في الأفق سحب بيضاء شفاقة... تشبه أجنحة الملائكة و كان النبي يهتف بحماس :

-سيهزم الجمع و يولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ...

استمر القتال مريباً... واقتربت المعركة من نهايتها بعد ان تمزقت خطوط المشركين ولاحت في الأفق هزيمة و شيكة .

هتف النبي غاضباً و هو يقذف حفنة من الحصى :

-شاهت الوجوه !

انفجرت ساعة الانتقام وقذف بركان الثأر حممه مدوية وهتف بلال وهو يرمق جلاذه بغضب :

-أمية! رأس الكفر لانجوت إن نجا... حاول بعض المسلمين اعتراض بلال. أرادوا عدوهم أسيراً فصاح بلال :

-يا أنصار الله.. إنه أمية رأس الكفر... لانجوت ان نجا ...

انفض بلال على جلاذه فهوى كأنما سقط من شاهق... ولأول مرة تنفس بلال الصعداء وانزاحت عن صدره صخرة قاسية كانت تجثم فوق اضلاعه فدمعت عيناه وراح ينظر إلى السماء في امتنان .

حاول أبوجهل في عناد قديم أن يمنع هزيمة «قريش» و كان يقاتل خلف سياج من رماح رجاله وفي مقدمتهم ابنه عكرمة... ولكن أتى لهؤلاء الحفنة من الحمقى الوقوف بوجه رياح النصر وهي تعصف بعنف من أدنى الوادي... اقتربت هتافات: أحد... أحد... و ماهي إلا لحظات حتى هوى أبوجهل وارطم رأسه بالأرض .

وضع عبدالله بن مسعود قدمه على عنق أبي جهل الذي رمقه متسانلاً :

-لمن الدائرة؟

-لله ولرسوله وللمؤمنين .

كانت قدم ابن مسعود تدق عنق أبي جهل، فتمتم حانقاً :

-لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم .

حاول أن يبصق كعادته فسقط البصاق فوق وجهه وجحظت عيناه. كان هو الآخر ينظر برعب إلى شي ء ما .

القسم 13

يثرب تتألق فرحاً وقد عاد النبي ورايات النصر تخفق فوق رأسه. كانت سعفات النخيل تتمايل طرباً ..

توجه النبي إلى المسجد فصلى ركعتين... كان المسجد هادئاً والسكينة تبع يترقق في جوانبه، نهض النبي واتجه صوب منزل فاطمة كعادته ...

هبت الفتاة لاستقبال أبيها العظيم، و كانت ابتسامه مشرقية تضيء قسما وجهها الأزهر .

طبع الأب قبلة دافئة على جبين ابنته أودعها كل معاني الأبوة والحب.. و وجدت فاطمة نفسها في أحضان أمها الدافئة... دخلت عائشة و كانت تغار من فاطمة فقالت مستنكرة :

-اتقبلها وهي ذات بعل؟

-أجاب النبي مدارياً :

-والله لو علمت ودي لها لازددت لها حياً .

أجابت ممتعضة :

-أنت لاتفيتي تكرر ذلك و تذكر أمها العجوز و قد هلكت في الدهر الأول فأبدلك الله خيراً منها .

أجاب النبي بحزن :

-لا والله ما أبدلني خيراً منها... أمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وانفقت مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها ذرية دون النساء. ارتفع صوت عائشة فقالت فاطمة و هي تتسحب بهدوء :

-يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي .

ردت عائشة و قد احمر وجهها غيظاً :

-والله يا بنية خديجة ما تربن إلا أن لأمك علينا فضلاً و أي فضل كان لها علينا !

ما لهذه المرأة لا تفتأ تذكر امرأة توسدت التراب من ثلاث سنين إلا لأنها ولدت فاطمة؟ و فاطمة فتاة تم عن سيدة كما ينم البلور عما فيه و قد ولدت سيدة النساء. تدخل النبي غاضباً :

-يا حميراء ان الله بارك في الودود الولود .

و أردف و هو يكفكف دموعه شرقت من عينه :

-رحم الله خديجة .
 -صرخت عائشة ثائرة :
 -إنك تحب فاطمة و علياً أكثر مني و من أبي .
 ماذا تقول فاطمة لهذه المرأة . هل تقول لها كيف لا يحب علياً و قد رباها في حجره، فلما اشتد عودة أمين به وفداه بنفسه يوم هاجر، و في بدر و قد نصر الله المسلمين و هم قلة. أتقول لها أن أباك كان مختبئاً في «العريش» و كان علي يقاتل... يقاتل بضراوة فصرع لوحده خمسة و ثلاثين من صناديد قريش من أصل سبعين. ماذا تقول لهذه المرأة التي أفقدتها الغيرة صوابها، ماذا تريد من أبي و زوجي... كانت لوعة تتأجج في روحها .
 -لك الله يا أبي .
 و ماذا بوسعها أن تقول... لا لا... لن تقول شيئاً... لن تضيف همماً جديداً إلى هموم النبي و قد تألب العرب عليه... لقد تعلّمت فاطمة الصبر... رضعته مع لبن أمها.. مرأ حنظلاً لكنها تعودت مذاقه حتى بات شيئاً مالوفاً .
 و في البيت نادى فاطمة أباه :
 -يا رسول الله :
 ولكن، لا جواب . و نادى مرة أخرى يا رسول الله .
 كانت كلمات الله تترقق في أعماقها: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا .»
 هتفت فاطمة :
 -يا رسول الله !
 التفت الأب العظيم و كان ينتظر منها كلمة أقرب إلى قلبه :
 -يا فاطمة! أنها لم تنزل فيك.. أنت منى و أنا منك... قولى يا أبة، فانها أحبى للقلب و أرضى للرب .
 سأل علي ميتسماً و قد أراد أن يشيع البهجة في الحجرة :
 -يا رسول الله، أنا أحب اليك أم فاطمة؟
 ضحك النبي و قال بود :
 -أنت عندي أعز منها و هي أحب منك. طافت الابتسامة الوجوه كفراشة تدور بين زهرات ثلاث .
 التفت النبي إلى ذكرى خديجة و قال مستفسراً :
 -يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس؟
 سكتت فاطمة، لاذت بالصمت ...
 لقد اكتشف أبوها إذن أنها جاءت له حاجة ثم عادت دون أن تسأله، وهاهو اليوم يسألها وهي تود أن لاتسأله، على أن منظرها يشفّ عما بها خاصة كفيها فما تزالان تؤلمانها من كثرة ما طحنت بالرحى .
 تدخل علي و قد عرف إن فاطمة لن تقول شيئاً :
 -أنا أخبرك يا رسول الله... أنها استقت بالقربية حتى أثرت في صدرها و جرت بالرحى حتى مجلت يداها و انها تسألك جارية تكون لها عوناً في ذلك ...
 شعر النبي بالحزن يعصر قلبه و انجست من عينيه الدموع و قال بلهجة تتم عن اعتذار عميق لابنته :
 -يا بضعة محمد، ان في المسجد اربعمائة رجل ما لهم طعام و لا ثياب.. فتعجلي يا بنتا مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة ...
 وأقبل النبي على عزيزته يرفدها من روحه العظيمة فقال :
 -ألا أعلمك ما هو خير لك من الخادم .
 -أجل يا أبة .
 -تسبحين الله ثلاثاً و ثلاثين مرة و تحمدين ثلاثاً و ثلاثين مرة و تكبرين أربعاً و ثلاثين؛ تلك مئة باللسان و ألف حسنة في الميزان .
 ابتسمت فتاة الأنبياء. ظهر البشر في عينيها العميقتين عمق البحار... وهمست في نفسها :
 -طلبتنا الدنيا فجاءت لنا الآخرة .
 و يمر عام. تعاقبت فصوله الأربعة و انطوت أيامه ولياليه .

القسم 14

أطلّ شهر رمضان و تألقت ليلاليه الجميلة... السماء تكتظ بالنجوم... وضاء لا عهد ليثرب به يسود المدينة، وطاقات آيات القرآن بساتين النخيل و الأعتاب .
 فاطمة صائمة، و الهلال الذي بزغ في سماء يثرب ينمو و يكبر، و جنين في بطن فاطمة يتحرك يفيض بالحياة... والعيون تترقب كوكباً سيشرق على الدنيا .
 كبر الهلال أصبح نصف دائرة من فضة... و تدور الليالي حتى إذا أصبح القمر بدرًا، بدأت لحظة المخاض .
 تألّق الأمل في بيت علي... وأطل على الدنيا صبى عليه سيماء محمد .
 خف النبي إلى منزل فاطمة، و البشرى تطوف فوق جبينه .
 هتف النبي بأسماء و كانت عند فاطمة :
 -هاتى إلى إبني .
 تقدمت اسماء تحمل طفلاً ملفوفاً بمنديل أصفر .
 احتضن النبي حفيده و طوح بالمنديل الأصفر بعيداً و قال :
 -يا أسماء ألم أعهد اليكم ان لا تلفوا المولود بخرقه صفراء ...
 أسرع اسماء و أحضرت منديلاً أبيض، وبدا الوليد حمامة بيضاء، أو غمامة هبطت من سمائها إلى الأرض .
 تساءل النبي عن اسمه فقال علي :
 -ما كنت لأسبق رسول الله .
 -يا علي أنت منى بمنزلة هارون من موسى فسمه باسم ابن هارون .
 -و ما كان اسمه يا نبي الله .
 -اسمه شبر .
 -العرب لا تعرف هذا الاسم .
 -سمه حسنا .
 -كانت فاطمة سعيدة و كانت سعادتها انعكاساً لسعادة والدها كما يعكس النور في المرايا ...
 كانت فاطمة فرحة لأنها لم تر أباه سعيداً كهذا اليوم، طافت أمام عينيه سعادة قديمة يوم قدمت خديجة طفلته الحبيبة فاطمة... يوم بشره جبريل بالكوثر .
 مرت سبعة أيام. أيام ملونة كقوس قزح... حتى إذا أطلّ اليوم السابع... نجر النبي كيشاً و عَقَّ عن حفيده.. لقد فدت السماء اسماعيل بكيش وهاهو حفيد ابراهيم يفدي الوليد المبارك بكيش أملح.. وأعطى القابلة فخذاً و ديناراً ...
 وضع النبي الوليد في أحضانه و حلق شعره و تصدق بوزن الشعر فضة .

وأدرك الذين رأوا النبي و حفيده و تلك السعادة التي كانت تتدفق في وجه النبي ان حبا عظيماً قد تفجر في قلب الرسول و ان لهذا الوليد المبارك شأنًا عظيمًا .
و تدور الأيام و القلب الصغير ينض بهدوء كنهج هادئ ...
استعادت فاطمة نشاطها بل شعرت ان قوة كامنة قد تولدت في روحها.. قوة تدفعها إلى العمل.. إلى ان تلمس الأشياء فتمنحها اسمها و جمالها .
رشت الفناء بالماء.. تناثرت من بين أصابع كفها حبات باردة كانت تتألق في ضوء الشمس.. وامتلاً الفضاء برائحة طيبة تشبه رائحة الأرض المرشوشة بالمطر... رائحة تشد المرء إلى أن يفتح صدره فيستنشق الهواء يملأ به رثيته .
كان الحسن في مهده غافياً... و طيف ابتسامته يلوح فوق فمه
الديق كوردة تتفتح للربيع... ربما كان يحلم بأشياء جميلة... أشياء أودعها الله في النفس يوم خلق الإنسان .
كانت فاطمة تنو إلى الوليد الذي صيرها أمًا . و قد ولدت فاطمة الأم.. تدفق نبع الأمومة في قلبها فياضاً رقيقاً ...
جلست إلى الرحي و مستها فدارت حول قطبها هادئة .
و بصوت رخيم راحت بنت النبي ترتل آيات جاء بها جبريل من السماوات البعيدة لشد ما تحب فاطمة تلك الفتاة الطاهرة... مريم ابنة عمران... انساب الصوت رقيقاً مؤثراً كساقية :
«وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .. يا مريم ائنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين... قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا و الآخرة و من المقربين .»
رنت فاطمة نحو وليدها.. حركت مهدهً بقدمها وراح المهد يتهدى على هون كزورق في بحيرة راتقة .
الرحى تدور بهدوء.. و كلمات السماء تنساب يخشوع.. و المهد يتأرجح برفق.. و تلتقي هذه الأشياء لتملاً حياة فاطمة حيث الزمن نهر تتدافع أمواجه في رحلة نحو البحر الكبير، أو رحى كبيرة تدور حول قطب ثابت لا يعرف الدوران .

القسم 15

جلس أبو حفصة يفكر، والليل و الظلام فلاة واسعة يبذر المرء فيها ما يشاء و يزرع ما يشاء و يحصد ما يشاء، يطير في السماء أو يمشي في الأرض يخرقها أو ينافس الجبال طولاً ..
جلس أبو حفصة وحيداً وبدأ جبينه الواسع براقاً في ضوء القنديل... كان يفكر في ماضيه.. شجرة قصيرة النسب.. ليس لها جذور في أرض الجزيرة... في مكة كان يهرب من نفسه يشرب الخمر كؤوساً تنسيه ماضيه فيعيش في بعض خيالاته... أو ربما ثار من بعض أهل الشرف، فيتغاضون عنه.. و السكر عذ .
تذكر فرحته يوم «أسلم»... محمد منحه الأمل في حياة لا حسي فيها و لا نسب إلا التقوى ولكن خابت آماله في المدينة ما يزال البعض ينظرون إليه نظرات مستهفمة... فكان يزيد التصاقه بالنبي.. زوجه ابنته حفصة.. أصبح صهراً لرجل عظيم في الجزيرة كلها، صادق أبابكر، وأبو بكر له منزلة، هاجر مع النبي.. بات معه في الغار
امتد به الليل.. وأضحت النجوم أشد لمعاناً.. اشتعلت في أعماقه رغبة مجنونة في الهرب.. تناول جفنة صغيرة فملأها خمرة معتقة و أفرغها في جوفه. شعر بأن أعماقه تشتعل، وزاد وجهه حمرة كجمرة متوقدة في الظلام.. صب لنفسه جفنة أخرى و اخرى ...
اشتعلت عيناه.. تراقصت فيهما أضواء القنديل... عوت ذئاب، و ولد وحش في أعماقه. كان الوحش يكبر و يكبر.. يزداد شراسة. فجأة هب واقفاً حتى كاد رأسه أن يرتطم بالسقف... سوف يحطم بيوت يثرب... أتجه إلى منزل «ابن عوف» لشد ما يكره هذا الرجل..
يفاخ بنسبه يتباهى بذهبه و فضته.. طرق الباب بعنف.. فخرج الرجل و هو يحاول فتح عينيه بصعوبة، التمعت عينا أبي حفصة و هو يهوى على رأس ابن عوف بقبضته، ارتد الرجل مذعوراً و ما لبث أن تهاوى في عتية الباب .
راح عمر يجتاز البيوت حتى اذا جعلها وراءه و بدت الصحراء أمامه بعيدة و السماء تكتظ بالنجوم.. تذكر ما جرى قرب آبار بدر... تذكر صناديد قريش... و هم يسحبون فوق الرمال ثم يرمي بهم في القليب، رأى أباجهل جثة هامدة.. و رأى أمية بن خلف و عتية و شيبه والوليد.. رآهم صرعى و كانوا يملأون مكة هيبة.. لقد أخذهم الموت دون عودة... و خلفوا وراءهم ذهباً و فضة و نساءً جميلات و خلفوا شجرة مجدهم الرفيع .
انطلق أبو حفصة يتغنى بشعر الأسود :

وكاين بالقليب قليب بدر و كاين بالقليب قليب بدر أيدعونا ابن كبشة ان سنحيا أيعجز أن يردّ الموت عني و ينشرنني اذا بليت عظامي

من القينات والشرب الكرام من السرب المكامل بالسنام وكيف حياة أصداء وهام و ينشرنني اذا بليت عظامي و ينشرنني اذا بليت عظامي
سماع بعضهم صوت عمر يشقّ صمت الليل فضلّ السكوت... رجل عنيف حادّ الطبع .
ولكن «ابن عوف» لم يتحمل كان يشق طريقه في الظلام إلى منزل النبي.. انه يعرف رسول الله. سوف يجده مستيقظاً يعبد الله، وربما ينتظر أوبة رجال بعثهم في الصحراء يستطلعون له أخبار القبائل و أخبار قريش فقريش لا تنام على الثار .
طرق ابن عوف الباب وانتظر... اطل النبي بوجهه المضىء .. رأى صاحبه ابن عوف، وخط من الدم يلون رأسه و فطرات حمراء فوق ثوبه .
تمتم ابن عوف بشييء من العتب :

عمر يا رسول الله ...
أدرك النبي كل شيء... ما يزال صاحبه يشرب الخمرة و يفعل ما يحلو له ...
بان الغضب على وجه النبي بعد ما عرف بأن صاحبه يتغنى بشعر أعدائه.. برده كلمة بكلمة و حرفاً بحرف... و الأنكى من ذلك أنه يجرّض المشركين لإطفاء النور الذي توهج في الجزيرة .
و ربما لأول مرة؛ رأى المسلمون رسول الله يتميز غضباً.. حتى اذا وقف على رأس صاحبه. هتف أبو حفصة و قد عاد إلى وعيه :
-أعوذ بالله من غضب الله و غضب رسوله .
كاد الرسول أن يهم به لولا كلمات سمعها هدأت نفسه وكظم غيظه.. يا للإرادة تضع نفسها فوق فوهة بركان نائر.. وهكذا تعرف الرجال في مواقف كهذه دونها لهوات الحرب و طلال السيوف .
عاد النبي إلى منزله يفكر في آفة العقول هذه ماذا تفعل بالناس.. هؤلاء الفارّون من ضوء النهار إلى هلوسة الظلام .
نهض أبو حفصة يجرّج قدميه عائداً هو الآخر إلى بيته.. وكانت العيون تحاصره.. تستنكر هذيانه.. رفع عمر يديه إلى السماء و هتف :
-اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر .
وفي الصباح سمع أبو حفصة بأية حملها جبريل من قلب السماوات :
-إنما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة و البغضاء في الخمر و الميسر و يصدّكم عن ذكر الله و عن الصلاة فهل انتم منتهون .
هتف عمر و هو يحطم أنية الخمر بعصبية :
-نعم انتهيئا... نعم انتهيئا .

سادت المدينة حركة غير عادية و توالى الحوادث.. اليهود يتآمرون خلف حصونهم يحرضون المشركين كافة على غزو المدينة... والنبي قلبه على المدينة يخاف عليها الغدر.. و كانت السماء تحرس مدينة أوت النبي... تحميها من دسائس اليهود .

القسم 16

مناجات مكة ما تزال تتصاعد في فضاء الجزيرة كخيوط الدخان، و قريش تعدّ العدة للثأر تحد سيفواً و خانجر، «أبوسفيان» يصرّ على نواجذه غيظاً يحاول أن يفعل المستحيل و قد تحولت زوجه إلى أفعى رهيبة في عينها يسكن حقد يحيل السلام إلى حرب ضروس و الأخضر إلى رماد و دخان.. هند لا تنام الليل.. تخلق في الظلام كأفعى اسطورية . و أبوسفيان يقود خيلاً و رجالاً، يغير على المدينة في قلب الليل. يتسلل كحية تسعى. و يجد «ابن مشكم» زعيم بني النضير ينتظره يدلّه على نقاط الضعف في المدينة . يعلمه كيف يقتل محمداً عدوهما المشترك .

كان كعب بن الأشرف يصغى بصمت. يراقب سيده كيف يحوك خيوط العنكبوت و أبوسفيان يتلمظ كحية عيناه تستعران كجمرتين و بدت ظلاله على الجائط شيطاناً مريداً .

قال أبوسفيان وقد أثاره صمت كعب: ربما تعجب من حماس اليهود لقتل محمد وهم أهل كتاب :

-أقسم عليك بالتوراة؛ ديننا خير أم دين محمد .

انتبه كعب كما لو لسعته عقرب و قال بغيظ :

-بل دينكم يا أباسفيان أهدى من دين محمد .

قال ابن مشكم بخبت يهودي :

-أترأه كاذباً يا أباسفيان؟ !

رد أبوسفيان و قد مل :

-كيف و قد كنا ندعوه الصادق الأمين .

-فلم تقتلوه إذن؟

شعر أبوسفيان بالنار تشتعل في رأسه :

-كنا و بنوهاشم مثل فرسي رهان كلما جاؤا بشي ء جئنا بمثله.. حتى ظهر محمد فماذا يبقى لنا .

قال كعب و هو يصب الزيت في النار :

-لو اجتمعت قبائل العرب عليه ما وصل الأمر إلى هذا الحد. قوافلكم، هيبتمكم و حيت ألهمتكم في خطر، تغدوا به قبل أن يتعشى بكم. نهض أبوسفيان حانقاً و هتف بعصية :

-لن يطلع القمر حتى تسمع بمناحة في بيوت يثرب .

أسرع أبوسفيان وأمعن في الصحراء إلى حيث يعسكر مئتان من خيله و رجاله .

المدينة تغفو هادئة تنتظر الفجر.. تتربص صباح الديكة ليوم جديد تزرع و تبنى و تفجر الصخر بنابيع ...

سنايك خيل مجنونة تهز الأرض و تثير غباراً امتزج مع غيبش الفجر .

في «العريض» من أطراف المدينة شبت النار في منزلين وفرت النسوة والأطفال و ذبح رجال.. و احترقت بساتين النخيل وفرّ المغربون لابلون على شي ء .

كان أبوسفيان يراقب متلذذاً منظر النار و هي تلتهم أهداب يثرب. و إذ أن هنداً كانت حاضرة علّها تطفئ غليلها .

صراخ الأطفال والنساء يملأ الفضاء المفعم بالسكينة. وتناهت إلى أذنيه صهيل خيل غاضبة فهمز فرسه تسبق الريح باتجاه مكة .

استيقظت مكة وقد سادتها حمى الحرب وراحت تنفث في الفضاء روح الثأر... ثلاثة آلاف محارب يلتفون حول أبي سفيان، والتفت حول هند أربع عشرة امرأة.. و ثارت الحمية ..حمية الجاهلية .

و تصاعد دخان البخور لهيل إله الحرب لياخذ لهم ثأرهم من محمد .

على ضوء سراج واهن بدا «العباس» مهموماً و هو يكتب إلى ابن

اخيه رسالة يحذره فيها من حملة وشيكة لقريش. وفي جوف الليل انطلق فارس يسابق الريح و يطوي رمال الصحارى لا يلوي على

شي ء .

كان النبي في «قباة» على مبعدة أربع أميال جنوب يثرب... في تلك الأرض التي وضع قدمه فيها أماناً بعد هجرة مثيرة. وقد جاء

ليراقب عن كثب ما تموج به الصحراء من عدر و دسائس... القبائل لا تريد ليثرب السلام؛ تخطب ود قريش حيث مكة أم القرى و بيت الألهة.. و قريش لاتنام على الثأر ..

لا شي ء في الأفق البعيد سوى الرمال.. الصمت يهيمن على الأشياء يزيدها رهبةً.. كان أبي بن كعب يدقق في نقطة سوداء

لاحت في الأفق... فهتف متسائلاً :

-اظنه فارسياً يسابق الريح .

-اجل يبدو انه قادم من مكة .

توقف الفارس بعد أن كبح جماح فرسه بعنف... أثارت الفرس الرمال المتوهجة ووقف الفارس مبهور الأنفاس يحمل في يمينه رسالة

من قلب ينبض بحب النبي .

لا أحد يعرف مضمون الرسالة التي قرأها ابن كعب على النبي.. ولكن الوجوم الذي غمر وجه الرسول يشف عن أمر مثير و حادثة

ستهز الصحراء و التاريخ .

القسم 17

قمر الرابع عشر من شوال يتألق في السماء يزدهي بهالته بين النجوم، و فناديل المدينة تتوهج.. ترسل ضوءاً ذهبياً. وبدت الكوى بنابيع تتدفق بالنور .

وفي المسجد التف المؤمنون حول الرسول، شباب و شيوخ و كهول يتداولون أمراً هاماً. قريش تزحف صوب يثرب. قال النبي:- نقيم

في المدينة وندعهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام.. و ان هم دخلوا علينا قاتلناهم .

اخرج النفاق رأسه إذ قال ابن سلول و قد صادفت الفكرة هوك في نفسه :

-نعم يا رسول الله... نقيم في المدينة .

ساد الوجوم ووجه الشباب... كانوا يتمنون الحرب في الصحراء ..

والحرب في أزقة المدينة لا يشبع حماسهم... و كيف ينعمون بحرب تشارك فيها النسوة و الأطفال. هتف شاب لم يحضر بدرأ

يتمناها منذ عام :

-ماذا ستتحدث العرب.. جينا عن اللقاء و قريش تشنّ علينا الغارات .

هتف آخر :

-اخرج بنا يا رسول الله إلى أعدائنا.. حتى لا يزدادوا جرأة .

ساد الحماس و بلغ ذروته، وضاع صوت العقل. وعندما ينفلت زمام العاطفة تصبح فرساً جموحاً لا تصغي لأحدٍ و لا يقف في طريقها شيء .

هبت العاصفة لا يعثرها أحد، وأضحى من الحكمة مماشاتها و توجيهها، والحد من عنفها .
انتبه بعضهم و قد تأثر لمنظر النبي يعدل دعه، عرضوا عليه القبول برأيه و البقاء في المدينة، فقال بحزم :
- ما ينبغي لنبي ليس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه و بين عدوه .
وأردف ليحكم قبضته على العاصفة :

-عليكم بتقوى الله و الصبر عند البأس وانظروا ما أمركم فافعلوا .
وقفت فاطمة تودع أباهها و بين ذراعيها صبي له من العمر شهر، اعتنقه النبي ..راح يملأ صدره من شذى عطر له رائحة الجنة، و همس بحب :

-إنه ريجانتي من الدنيا.. و أمه صديقة .
ودع الرسول يثرب، و معه ألف مقاتل، و في ثنية «الوداع» حيث الجادة التي تؤدي إلى مكة. و عندما وصل «الشيخان» و هما جبلان في أطراف المدينة قام النبي باستعراض لقواته فأرجع من الشباب من كان دون الخامسة عشرة ...
طلع الفجر و وصل النبي «الشوطة»- بستان بين المدينة و جبل «أحد» ...»

و ذر رأس النيفاق قرنه فأعلن تمرده على الرسول .
عاد «بن أبي» و عاد معه ذيوه و كانوا ثلاثمئة، فأحدث ذلك شرخاً في جيش النبي و هو على و شك الاشتباك .
عسكرت قريش في وادي «قناة» وانتشرت في أرض سيخة، قاطعة الطريق على جيش المسلمين .
تساءل النبي عن دليل يمكنه هداية الجيش على طريق يؤدي إلى أحد لا يمر على جيش المشركين .
هتف «أبوخيثة» :

-إنا يا رسول الله
-سر على بركة الله .

سلك الدليل «حرة» بني حارثة و هي أرض ذات حجارة سوداء منخورة كأنها شويت بالنار... كانت المزارع على يمين الجيش المتقدم وقوات المشركين على شمالهم واتجه الدليل شمالاً نحو جبل أحد، وقطع وادي «قناة» .
دخل الجيش الشعب المطل على الوادي، تاركاً الهضاب والجبل وسفوحه في ظهره .

نظم النبي جنوده صفوفاً في ثلاثة أنساق و انتخب خمسين من أهر الرماة، وأمرهم بالمرابطة فوق جبل «عينين» و هو جبل صغير يقع في الجنوب الغربي من معسكر النبي و على بعد مئة و خمسين متراً من مقر القيادة، و كان اجراؤه هذا تحسباً من حركة التفاف يقوم بها المشركون، و كان النبي يعلم ان لدى قريش قوة كبيرة من الفرسان تحت إمرة «خالد بن الوليد» و كانت هذه القوة مصدر قلق للنبي .
قال النبي لابن جبير قائد الرماة :

-انضحوا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا ...
والتفت إلى بقية الرماة :

-احموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل.. إنا لا نزال غالبين ما ليثتم مكانكم، اللهم انى أشهدك عليهم .
و للرمة الأخيرة أوصاهم النبي .

-إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل اليكم، و ان رأيتمونا ظهرنا على القوم و أوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم، و ان رأيتمونا غمنا فلا تشركونا، و ان رأيتمونا تقتل فلا تغيبونا و لا تدافعوا عنا .

نظم النبي قواته واضعاً في الخط الأول رجالاً أولي بأس شديد بدا فيهم علي و حمزة و أبودجانة و سعد بن الربيع و رجال حملوا أرواحهم فوق الأكف، كما خصص كتيبة بقيادة المقداد للتنسيق مع الرماة في صد هجوم محتمل قد يقوم به فرسان قريش .
تذكر النبي رؤياه. عادت تتمثل أمامه من جديد... رأى ابصاراً تسر الناظرين.. رآها تذيب فتشطح دماً عبيطاً ورأى في حد سيفه ثلماً ...
تجمعت في السماء النذر و بدت السيوف بين الغبار بروقاً نزلت إلى الأرض و شد أبودجانة حول رأسه عصابة الموت كجرح يفور و أدرك الذين رأوه أن الرجل قد اختار الموت طريقاً إلى الحياة .
الرجل الذي اختارته السماء رسولاً إلي الأرض يبلغ رسالته :

-ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا و قد أمرتكم به، و لا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا و قد نهيتكم عنه، وانه قد نفت الروح الأمين في روعي انه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها لا ينقص منه شيء .. المؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى اليه سائر الجسد .
و في المعسكر الآخر في أرض سيخة تعالت أصوات الدفوف والطبول تشف عن روح همجية متعقشة لرؤية الدماء... تسكر على صوت طبول الحرب تدق بعنف فيستيقظ الشيطان يعربد و يدمر .

خرجت خمس عشرة امرأة ينشدن أناشيد النار :
و كان صوت هند له نبرة نمره متوثبة :

نحن بنات طارق الدر في المخانق ان تقبلوا نعانق او تدبروا نفارق فراق غير وامق

نمشى على النمارق والمسك في المفارق ونفرش النمارق فراق غير وامق فراق غير وامق

وحلم رجال بليالي حمراء.. ليال مليئة بالمتعة. و منوا أنفسهم بسبى من يثرب فيهن حسان من الأوس أو الخزرج .

اتسعت الأحداق وعض الرجال على النواجذ... و بدأت قريش الهجوم. بدأت قوة من المشاة تساندها كوكبة من الفرسان بقيادة عكرمة بن أبي جهل هجوماً على ميسرة الجيش الاسلامي لتدميرها، و من ثم النفوذ إلى عمق الشعب و ضرب المسلمين من الخلف .

قوبل الهجوم العنيف برشقات كثيفة من النبال واعترض المقداد بقواته سيل المهاجمين وأرغمهم على التراجع و من فوق سفوح أحد تدرجت الصخور و الحجارة فارتد المهاجمون و تشتتوا ..

عاود الفرسان الكرة مرة بعد أخرى ولكن دون جدوى. وفي تلك اللحظات الحساسة أصدر النبي أمره بشن الهجوم المعاكس.. مستهدفاً قلب القوات المتقهقرة و كان ثقل المعركة يدور حول «لواء» قريش من أجل اسقاطه و تحطيم الروح الجاهلية. وسقط اللواء بضربة من علي.. ثم ارتفع مرة أخرى ثم هوى على الأرض... ثم ارتفع... ثم هوى ممزقاً فوق الأرض ...

تزلزلت معنويات المشركين وذببت فيهم الهزيمة و اطلقت هند ساقها للريح وسقطت الدفوف و تبعثرت أمانيات زوج أبي سفيان وذهبت أذراج الرياح
وفي غمرة النصر سقط حمرة. اخترق قلبه رمح وحشي ..

سقطت ثلثة من سيف محمد .
وفوق جبل «عينين» كانت هناك معركة من نوع آخر.. معركة في داخل النفوس رهيبه مشتتة.. أشعلتها الغنائم المبعثرة في الوادي .

وأخيراً وبعد صراع عنيف انتصرت النفوس الامارة بالسوء.. و غادر أكثر الرماة مواقعهم «لا يلوون على شيء» و (ابن جبير) يدعوهم.. يذكرهم بوصايا الرسول. غير أن النفوس التي أصغت إلى فحيح الشياطين نسيت همسات السماء .
كان خالد بن الوليد ينتظر الفرصة و عندما شاهد منظر الرماة و هم يهبطون الجبل التمتع في عينيه حمى الحرب، فاندفعت الخيول كالعاصفة و عمت الفوضى صفوف الجيش الاسلامي ...
وفر المسلمون لا يلوون على شيء، و الرسول ينادى :

-أنا رسول الله.. هلموا إلي !
 وبعد لأي تمكن النبي من تجميع أكثر قواته و الانسحاب بهم نحو سفح الجبل .
 صرخ أبوسفيان في بطن الوادي :
 -اعل هبل .
 وجاء صوت الرسول :
 -الله أعلى وأجل .
 -لنا العزى و لا عزى لكم .
 -الله مولانا و لا مولى لكم .
 -يا محمد حنظلة بحنظلة و يوم بيوم بدر و الحرب سجال .
 أمر النبي علياً أن يستطلع قوات قريش فقد تفتح المدينة :
 -انظر فإن جنبا الخيل وامتلوا الإبل فانهم يريدون مكة.. و ان ركبو الخيل فانهم يريدون المدينة ..
 وأردف النبي و قد برق العزم في عينيه :
 -والذي نفسي بيده لنن أراو المدينة لأناجزتهم .
 جراح النبي تنزف.. تفور.. لا تعرف التوقف.. بالجراح الأنبياء حمراء حمراء بلون الشفق، تبشّر بالنهار.. بشمس ساطعة ودفء الربيع .

القسم 18

كذئاب مجنونة راح المشركون يجوسون خلال الجثث الهامدة يمزقون اكباداً و قلوباً كانت تنبض بالحياة؛ تحلم بعالم جميل؛ بدنيا آمنة مطمئنة .

جثمت «هند» على جسد حمزة كنسر متوحش ويدا وجهها الحاد كغراب شره.. كان صوتها يشبه فحيح الأفاعى :
 -حمزة.. صياد الأسود... جثة هامدة.. انهض يا قاتل أبي و أخي :
 استلقت هند خنجراً و بقرت بطن أسد الله و أسد رسوله ثم انشبت يدها في بطنه . كانت المخاطب تبحث عن كبد حرى و لما عثرت عليها انتزعتها.. و حمزة ما يزال نائماً يعلو وجهه غبار خفيف .
 مزقت الذئبة كبد الإنسان. تريد أن تلوكة.. أن تتلعه .
 و على تلال قريبة كانت نسوة في المدينة يرقبن المعركة، و قد غاظهن فرار المسلمين، صرخت «أم أيمن» وهي تحثو التراب في وجه «عثمان» :
 -هاك المغرل فاعزل به وهلم سيفك .
 أراد عثمان أن يخبرها بمقتل النبي و انه سمع أحدهم يهتف وسط المعركة: قتل محمد؛ ولكنه فضل الصمت فأمر أيمن امرأة في رحل. سوف تحثو في وجهه التراب مرة أخرى .
 لوى عثمان عنان فرسه وانطلق صوب جبل «الجلعب» في ناحية يثر وبتعه المنهزمون فهو خبير في اكتشاف المخابئ و قد يجتاح أبوسفيان المدينة .
 عاد النبي إلى المدينة ينوء بجراحاته، واخفق على و هو يغسل جراحه أن يوقف نزف الدماء؛ وكادت «فاطمة» أن تموت و هي ترى أباه و الدماء تسيل من وجهه.. تدفقت الدموع غزيرة كسما ممطرة واستيقظت في أعماقها كوامن الأم تحاول انقاذ وليدها بأي شيء؛ عمدت إلى حصر فاحرقته، ولما صار رماداً لمت الرماد وراحت ترش جراح النبي .
 نجح الرماد في وقف اشتعال النار، أطفأ الجراح بعد أن أخفق الماء .
 كان علي يراقب زوجه تضمد الجراح.. تمسها بيلسم يوقف تدفق الألم. تأملت فاطمة سيف أبيها وسيف بعلها و قد جلتتهما الدماء وأدركت هول الملحمة التي دارت في جبل أحد .
 قال علي و هو يناولها سيفه :
 -خذيه فلقد صدقنى اليوم .

فقال النبي :
 -لقد أدى بعلك ما عليه و قتل الله بسيفه صناديد قريش حتى نادى جبريل بين السماء و الأرض: لاسيف إلا ذوالفقار و لا فتى إلا على .

نظرت فاطمة إلى زوجها تشكره بعينين تشعان رحمة... الله وحده يعرف الأعماق... وحده الذي يعرف روح هذا الفتى الشجاع الذي حمل روحه على كفه يفدى رسول الله و قد غدا كل شيء في دنياه، انه لا يعرف للحياة معنى إلا بمحمد... محمد الذي منحه في زمن الرعب الطمأنينة والسلام .

عاد عثمان و من معه إلى المدينة بعد أن مكث في الجبل ثلاثة أيام... و قال النبي عندما وقعت عيناه عليهم :
 -لقد ذهبت فيها عريضة !!

و تمر الأيام و تندمل آلاف الجراح و عادت إلى المدينة روح
 الأمل... وانطلق المجتمع الجديد يزرع و يبني و يعمل و يشحن السيوف... و قد أدرك الذين آمنوا ان طاعة الله و الرسول هي الطريق الى النصر... إلى المجد و إلى جنة عرضها السماوات و الأرض .

عادت فاطمة تدير الرضى و تهز المهدي و تدير منزلها الصغير و تضمد جراح النبي .. تعرف مواقعها في روحه العميقة؛ و ربما انطلقت إلى أحد تبكي حمزة سيد الشهداء.. تعرف عمق الجرح الذي أحدثه رحيله في قلب أبيها .

و أطلت عام جديد يحمل معه أفراح النصر و يقدم إلى رسول الله رجانة أخرى في حنايا فاطمة؛ فلقد ولد الحسين وحيهاً في الدنيا و في الآخرة و من المقربين .

وهمس النبي في أذنيه بكلمات السماء و سمعه الكثير و هو يقبله قانلاً :
 -حسين منى و أنا من حسين .

و كان الحسين قريباً قدب كنملة و راح يداعب شعر أخيه و قد غمره فرح طفولي، و تدفق نبغ جديد؛ نبع في أسرة صغيرة؛ أسرة أسسها النبي و باركتها السماء .

و تمر الأيام و النبي يشمر عن ساعديه و يبني الإنسان... انسان الصحراء.. يروض في أعماقه الوحش و يضىء في ظلماته شمعة .

و بدت يثر في أرض الله الواسعة سراجاً في مهيب إعصار فيه نار أو قارباً صغيراً وسط الأمواج العاتية، و النبي و الذين آمنوا يقاومون المد الجاهلى و يحيطون مؤامرات يهودية... و اليهود عجنوا بالغدر و تشرّبوا تعاليم التلمود... نيدوا التوراة بعيداً إلا ما حرقوه عن مواضعه، بينون حصونهم و قلاعهم، و ظنوا انهم مانعتهم حصونهم . يخفون وراءها حقداً دفيناً للإنسان تناقلته أجيالهم منذ السبى البابلى و إلى ان يقضى الله أمراً كان مفعولاً. يباهون الأمم يموسى بن عمران و قد عشعش قارون في نفوسهم. ترن في أعماقهم خشخشة الذهب و الفضة، فتوارثوا عجللاً صنعوه منذ أن سول لهم السامري، و ظلوا عاكفين عليه حتى اذا نصحهم هارون

كادوا ان يفتكوا به، أداروا ظهرهم للذى أنجاهم من البحر و عكفوا على عجل له خوار .
 كان موسى غاضباً و هو يلقي الألواح.. و يأخذ بمخائق أخيه. هتف هارون :

-انهم استضعفونى و كادوا يقتلونى .
 واتجهت الأبصار إلى السامري. كاد موسى يبطش به :

-فما خطبك يا سامري؟
لا شيء.. لقد رأيت أثر الملاك.. وكذلك سولت لي نفسي. و مضى السامري في التيه... يشد عباءته إلى كتفيه يعتصر وجهه
المخادع بكفيه... وعواء ذئب جائع يضج في صدره اللاهث.. ضاع السامري بين آثار الجمال والحمير لا يعرف له وطناً سوى تلك
اليقعة التي خسفت بفارون و خزائنه الزاخرة بالذهب الأصفر.. في أعماقه أمنيات لعجل جديد يعبده من دون الله؛ لا تكفيه بقعة
واحدة. يريد أن يتلغ سبياً و أرض كنعان، و بابل و رمال جزيرة العرب .
وحط السامري رحلة هنا و هناك من أرض الجزيرة وراح بيني الحصون والقلاع و ينهب الذهب، القبائل العربية تعبد أصناماً من حجارة
تنحتها بأيديها أو أشجاراً ذات رفاع، وانباء السامري يعيدون عجلًا من ذهب يخطف الأبصار، يطلون عليه عاكفين حتى جاه محمد .
توقف التاريخ يحبس أنفاسه عند حصون بني البضير فقد جاء محمد ومعه جمع من أصحابه يطالبهم بالوفاء وهم جبلوا على الغدر؛
يبتسمون لمن يدعوهم فيكشرون عن أنياب تنز صديداً .
قالوا وقد رأوا النبي عند الحصن في قلة ودونما سلاح .
-نعم يا أباالقاسم نعينك على ما أحببت .
وجلس النبي ينتظر الوفاء .
وخلف جدران الحصون والقلاع ولدت مؤامرة .
اجتمع أبناء السامري... العيون تيرق بالغدر :
-هذه فرصتنا للقضاء على محمد .
-أجل نتغدى به قبل أن يتعشى بنا .
-انطلق يا «عزوك» فتحدث معه و أطل الكلام .
-و أنت يا «جحاش» اصعد فوق الحصن وإلق عليه (رحى الطاحون) .
حأكت العناكب شباكها على عجل. غير أن النبي الأمي الذي يحدون اسمه في التوراة يعرف ما يجول في خاطرهم فغادر الحصن
وجاء المدينة يسعى .
و حوصرت حصون السامري عشرين يوماً حتى تهاوت جميعاً وقتل على «عزوك» ولملم بنو البضير شبك العنكبوت و رحلوا... رحلوا
بعيدا و تنفس النبي والذين آمنوا الصعداء؛ وتمت كلمة ربك بالحق و قيل بعداً للقوم الظالمين .
وعادت يثرب مدينة منورة يكاد سنا نورها يضئ ء التاريخ .

القسم 19

الحياة في يثرب يبايع متدفقة، و الأمل ينمو.. يكبر.. غدا شجرة خضراء أصلها ثابت و فرعها في السماء، والذين نصرنا النبي يعملون
دائنين في زروعهم، يرعون ماشيتهم .والذين هاجروا وجدوا لهم متسعاً من مكان في الأرض و في القلوب و غدا الجميع أخوة على
دين واحد كلهم من آدم و آدم من تراب، والرسول لا يفتأ يؤلف بين القلوب.. يغسل عنها أدراة الجاهلية .
على يعمل.. يسقى الزرع أو يفجر الأرض بنبايح، فيحصل لقاء ذلك صاعاً من شعير أو تميرات من نخيل يثرب .
كانت شمس الأصيل تغمر مسجد النبي بأشعتها الذهبية، ومساقط الضوء تتناثر من بين جريد النخل كدنانير ذهب نثرت فوق
عروس .
جلس النبي في قبيلته بعد ان انفتل من الصلاة و قد تحلّق حوله
أصحابه فيدا كقمر وسط النجوم، والزمن نهر يتدفق... تتدافع قطراته بانتظام...أو رحي كبيرة تدور و تدور، تهب السنين لمن يشاء و
من لا يشاء. يفتح عيون الأطفال و تغضض عيوناً متغضضة الأحفان، تشد أعواد الشباب و تقوس قامات الكهول، فالجميع إلى زوال و
يبقى وجه الله... الله وحده .
دخل المسجد شيخ عصف به الزمان. نحت وجهه و مرق ثيابه، يدب على الأرض ديبب نملة تبحث عن رزقها في يوم بارد .
هتف الشيخ و هو يتطلع إلى النبي كأنما يتطلع إلى شمس تهب النور والدف ء :
-يا نبي الله أنا جانع.. عريان.. اشبعنى واكسنى .
أجاب النبي و قلبه يذوب تأثراً :
-ما أجد لك شيئاً.. ولكن الدال على الخير كفاعله... انطلق إلى من يحب الله و رسوله، و يحبه الله و رسوله، يؤثر الله على
نفسه.. انطلق إلى فاطمة ..
التفت النبي إلى بلال :
-قم يا بلال.. فخذني إلى منزل فاطمة .
وقف الشيخ على باب يغضى إلى عالم من أمل.. عالم يهب الخير للجياع .
هتف الشيخ بصوت واهن ينوء بعب ء السنين :
-شيخ عصف به الدهر و أضر به الفقر.. واسينى يا بنت محمد. نظرت فاطمة حوالها ..لم تجد شيئاً تسعف به انساناً ينتظر بأمل.
كان هناك في زاوية الحجر جلد كبش مديوغ، فطوته و ناولته الشيخ :
-خذ، فعسى الله أن يختار لك ما هو خير منه .
دقّ الشيخ النظر و تتمم :
-و ما أصنع بجلد كبش يا بنت محمد !
وأصعب شيء ء أن تهب المرأة زينتها... اساور من ذهب أو فضة أو عقداً من لالكئ البحر، ولكن هناك ما يضئ ء في نفس المرأة و
يتألق في أعماقها تألق اللؤلؤ في الأصداف .
انزعجت فاطمة عقداً كان في عنقها و ناولته الشيخ الملهوف :
-خذها يا شيخ.. عسى الله أن يعوضك به ما هو خير منه .
عاد الشيخ الهوينى إلى المسجد... كان النبي ما يزال جالساً بين أصحابه، قال الشيخ :
-يا رسول الله أعطتني فاطمة هذا العقد و قالت به عسى الله أن يصنع لك به خيراً .
دمعت عينا النبي :
-كيف لا يصنع الله لك! و قد أعطتك إياه سيدة بنات آدم .
سأل عمار و كان حاضراً :
-بكم تبيع العقد يا شيخ؟
-بشبيعة من الخبز و اللحم، و بردة يمانية استر بها نفسي و أصلي بها لربى .
ملأ الشيخ كفيه دنانير من ذهب و دراهم من فضة فهتف جذلاً :
-ما أسخاك بالمال يا رجل !
غاب الشيخ برهة ثم عاد و بريق أمل يشع من عينيه، و كلمات الدعاء و تتممات الثناء تنساب من بين شفثيه فقد أعناه الله بعد
فقر و أشبعه بعد جوع و كساه بعد عرى .
انطلق عمار إلى منزله.. فسكب عطراً عالياً على العقد ثم لفه
ببرده يمانية و قال لفتاه و كان اسمه سبهم :
-انطلق إلى فاطمة و سلمها العقد و أنت لها .

و انطلق سهم كسهم يجتاز البيوت حتى اذا وقف على باب فاطمة :
 -السلام عليك يا بنت رسول الله... العقد وأنا لك يا بنت محمد .
 -العقد لى و أنت حر لوجه الله .
 كاد الفتى يطير فرحاً.. كان يفكر بالحرية.. يحلم بها.. وهاهي اللجظة التي كاد أن ينساها تتحقق فيدخل الدنيا حراً طليقاً.. انه لن ينسى أبداً فاطمة... السيدة التي أعادت اليه شيئاً غالياً ففده منذ زمن .
 عاد مهرولاً و الفرحة تطفو فوق وجهه جبينه مشرق وقمه كهلال عيد الفطر. وجد نفسه يعود إلى عمار، هتف عمار :
 -ما يضحكك يا سهم؟
 -أضحك لبركة هذا العقد... اشبع جائعاً و كسى عرباناً وأغنى فقيراً واعتق عبداً ثم عاد إلى صاحبه .
 و عندما أوت الطيور إلى أعشاشها... و عاد المزارعون إلى بيوتهم وساق الرعاة غنيماتهم... في طريق العودة و قد غابت الشمس... لتتألق النجوم في صفحة السماء و يشرق القمر... كانت حكايات السمر تتحدث بقصة عقد مبارك وهبته بنت محمد ثم عاد اليها بعد أن مست بركته جيعاً و عراة و عبيداً... و هبتهم الخبز و الكساء و الحرية .

القسم 20

مضت خمسة أعوام على هجرة النبي... والمدينة ما تزال تنعم ببركات السماء.. تبني و تزرع و تنتج و تقدم إلى العالم الكلمة الطيبة ولكن قريباً واليهود يفكرون باحتثات شجرة غرستها السماء ليعود الناس القهقري إلى زمان لا عودة اليه .. دخل فصل الشتاء.. و رياح باردة تهب من ناحية الشمال، الغيوم تتجمع في السماء.. ثم سرعان ما تتبدد... تاركة الأرض عطشى و الزرع أيدى متضرعة تشد المطر، العواصف تشتد يوماً بعد آخر و لا قطرة مطر ... وهناك رياح أخرى.. رياح جاهلية تهب من ناحية الجنوب.. قريش تعد العدة لغزو المدينة.. و السامري الذي حط رحله في خيبر يخطط لإطفاء النور في جزيرة العرب .اشتعلت في القبائل حمى السلب و النهب... و يترب لقمعة دسمة.. و كذلك سول لهم السامري ..
 دقت طبول الحرب بين مضارب القبائل و سيوف الغدر تشد، تومض في بطون نجد وكنانة و قريش تطرب على رقصة الحرب و هند تلوك كبد حمزة، و أبوسفیان يحلم بالمجد.. يهتف :اعل هبل .
 رياح الشتاء ما تزال تعصف بالمدينة و الغيوم تعبر السماء كسفن تائهة، حل شهر رمضان، القى رحله في الجزيرة غريباً لا يعرفه أحد إلا في أرض طيبة ..
 صامت يترب لله.. امتنع أهلها عن الأكل و الشرب.. وصامت جوارحهم... و المعدة توقفت عن الانبساط و التقلص.. فانفض القلب يخفق بقوة.. واستيقظ العقل من سباته متوتراً.. يرى ما لا تراه العيون.. و يدرك ما لا تدركه الأبصار ...
 جاء رمضان يعلم الإنسان كيف يجوع فينتصر. كيف يظلم لتولد إرادته.. كيف يهزم الوحش القابع في داخله لينتصر الإنسان المضطهد في الأماق.. رمضان نهر يجري.. تتدافع أمواجه برفق.. يغسل القلوب من الدرن.. يعيدها بيضاء بيضاء كحمام برية تطير في الفضاء.. خفيفة حرة تسبح في ملكوت الله .
 الرياح الباردة ما تزال تهب من ناحية الشمال... و الغيوم ما تزال تفرّ مذعورة باتجاه الجنوب... و لا قطرة مطر والعام عام جفاف... والرسول يشد على بطنه حجر المجاعة، و يصغى إلى انباء تأتي من ناحية الصحراء
 انهم عشرة آلاف مقاتل... قبائل غطفان و قريش و كنانة.. و قد نقض «بنوقريظة» العهد و هم داخل المدينة.. ألف خنجر في خاصرة يترب .
 -و هناك أعداء موجودون بيننا لا نعلمهم. الله يعلمهم .
 -كفانا الله شر المنافقين .
 -يترب في خطر .
 -انهم يزحفون باتجاه المدينة من فوقنا و من أسفل منا .
 -لا تنسوا الله فينساكم.. و اذكروه يذكركم و ثبت أقدامكم .
 وفي المسجد كاد اليأس يعصف بالقلوب المؤمنة والقلق يززع شجرة عرسها النبي لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .
 وبعد حيرة و وجوم نهض رجل من أهل فارس.. يلوح بطوق نجاة ليترب فالطوفان قادم :
 -يا رسول الله إنا كنا بارض فارس اذا خفنا العدو خندقنا .
 فكرة لم تكن العرب لتعرفها. هتف الأنصار :
 -سلمان منا .
 وردد المهاجرون :
 -سلمان منا .
 و تنازع الفريقان رجلاً جاب الأرض بحثاً عن رجل يدعى محمد .
 هتف النبي و قد رنت اليه العيون :
 -سلمان منا أهل البيت .
 رياح الشتاء تعصف بعنف... و العام جفاف و البطون خاوية.. ولكن الإرادة التي إيقظها رمضان تكاد تلوى التاريخ ...
 من الشمال ستهب عاصفة الأحزاب. ضرب النبي الأرض بمعول من حديد و ببأس شديد؛ وهوت المعاول فتفتت الأرض على طول خمسة آلاف ذراع و عرض تسعة أذرع و عمق سبعة أذرع .
 ومرت الأيام و الرياح ما تزال تهب شديدة البرودة و الأجساد تذوي لانجد ما يسد رمقها.. ولكن الإرادة كانت تشتد.. تفتت الصخور و تغوص في أعماق الأرض، فأسراب الجراد قادمة.. تريد أن تحيل كل ما هو أخضر إلى بياب لاشيء فيه إلا سراب يحسبه الظمان ماء .
 جلس النبي ليستريح قليلاً... جفف حبات عرق كانت تتألق فوق جبينه وبدا معوله قطعة نادرة أو كنزاً منحتة الأرض... شد حجر المجاعة إلى بطنه أكثر.. ثلاثة أيام تمر و هو لا يجد شيئاً يطعمه .
 لم يذكره أحد.. الجوع و البرد و الاعياء هواجس الصحراء تنسي المرء أقرب الأشياء اليه ولكن فاطمة لم تنس الرجل الذي اخترته السماء رسولاً إلى الأرض المنكوبة .
 الرجل الذي اكتسبت يترب مجدها به جائع.. يشد حجر المجاعة إلى بطنه لا يجد شيئاً يأكله حتى ذكرته فاطمة على حين غفلة من أهل يترب .
 غابت الشمس، وفاحت رائحة الخبز في فضاء المدينة و توهجت الموافد في البيوت تمنح الصائمين الدفء و الشبع.. و النبي في خندقه يصلّي لله :
 رب انى لما أنزلت إليّ من خير فقير .
 وجاءت فاطمة من بعيد تحمل اليه قلبها و خبزاً انضجته قبل قليل .
 شاعت البهجة في وجه النبي.. بهجة تشبه بهجة الحواريين يوم نزلت اليهم مائدة من السماء .
 و فاطمة حوراء أنسية جاءت تحمل له الخبز والدفء والشبع. تمتت النبي :

-والله ما دخل جوفي طعام من ثلاث .
عادت فاطمة إلى منزلها... تكفكف دموعها.. تبكي الرجل الذي حمل مشعل السماء إلى الأرض يريد له أن يبقى مضيئاً بوجه
العاصفة القادمة .

القسم 21

انطوت ليلالى رمضان وابتسم هلال شوال يحمل للقلوب فرحة عيد الفطر... وامتزجت فرحة العيد بفرحة أخرى .
لقد أتم الرسول والذين آمنوا حفر خندق امتد خمسة آلاف ذراع وعرض تسعة أذرع و عمق سبعة أذرع .
تجمع بعضهم فوق التلال المشرفة وراحوا ينظرون إلى عمل انجزته الإرادة.. إرادة الإنسان الذي اضاءت نفسه شعلة سماوية .
-آية قوة أنجزت هذا العمل العظيم؟
-انها قوة الإيمان يا أخي .
-أجل.. المؤمن أقوى من الجبل .
ابتسم هلال شوال يعلن نهاية رحلة الجوع والظمأ... وعاد المؤمنون يحملون معاولهم و قد نفضوا تراب يوم حافل بالعمل .
عسكرت جيوش مكة في «مجمع الاسيال» بين «الجرف»
و «رغابة».. و عسكرت غطفان ب«ذئب نغمى» في الجهة الغربية من جبل أحد... و كان حي بن أخطب من سلالة السامري يكيّد
من أجل احتلال يثرب و قتل النبي الأمي الذي يجده مكتوباً في التوراة... في أعماقه يتردد خوار عجل.. عجل عبده من دون الله .
تحطمت أحلام أبي سفيان أمام خندق لم يكن ليخطر على باله يوماً .
تمتم حانقاً و هو يهمز فرسه بالسوط .
-مكيدة لا تعرفها العرب .
-انها من تدبير ذلك الفارسي .
-لا يمكن اقتحام الخندق أبداً .
-ليس أمامنا سوى ضرب الحصار .
حل المساء.. و رياح الشتاء تهب من ناحية الشمال.. رياح تخترق الجلد و تصلّ في العظم.. جلس أبو سفيان قبالة النار المشتعلة
والريح تعبت بأطراف الخيمة و كانت ظلاله تتراقص فوق وبر الخيمة كشيطنان مرید ..
تمتم عكرمة و هو يحاول كسر الصمت الجائم :
-انهم يعيدون عن مرمى النبال .
أجاب أبو سفيان و هو يحدف في المجرم :
-ايحثوا عن ثغرة لاقتحام الخندق فإطالة أمد الحصار ليس في صالحنا .
علق عمرو بن العاص :
-أنا لا أثق بقريظة انهم يطلقون أقوالهم جزافاً، و إلا فأين أفعالهم... ألف مقاتل في خاصرة يثرب.. و هم ما يزالون يختبئون خلف
حصونهم .
قال عكرمة يائساً :
-و لا تنس قبائل غطفان.. انهم يلوحون بالصلح مع محمد مقابل حفنة من التمر .
صرخ أبو سفيان هائجاً :
-و هل جاءوا إلا من أجل ذلك ...
سكت هنيهة و أردف و قد التمعت عيناه ببريق مخيف :
-غداً سأحسم الأمر .
اطل الصباح بارداً برود الموتى، و قد بلغت القلوب الحناجر ...
كان «العامري» يجول بفرسه في «السيخة» بين الخندق و جبل «مسلع».. لقد تمكّن مع قوّة من فرسانه من اقتحام الخندق .
أمر النبي مفرزة من قواته بقطع طريق العودة .
صرخ الفارس المعلم بكبرياء :
-هل من مبارز ..
وخيم صمت رهيب و كانت القلوب الخائفة تدق بعنف كطبول الحرب .
-هل من مبارز.. ألا من مشتاق إلى جنته؟!
وقفه فرسان كانوا ينظرون إليه باعجاب و نهض عليّ للمرة الثالثة يطلب المواجهة فأذن له الرسول.. و تقدّم فتى الإسلام .
رفع النبي يديه إلى السماء.. إلى عالم لا نهائي :
-اللهم انك أخذت منى عبدة يوم بدر و حمزة يوم أحد و هذا عليّ أخي و ابن عمّي فلا تذرني فرداً و أنت خير الوارثين .
ثم تمتم و هو يشيع علياً بنظراته :
-برز الإيمان كله إلى الشرك كله .
وتقابل فارس و راجل؛ مشرك و مؤمن .
-من أنت؟
-علي بن أبي طالب .
-ليبرز إلي غيرك.. اني أكره أن اقتلك ..
لقد كان أبوك صديقاً لي .
-لكني أحبُّ أن اقتلك .
قال «ابن ود» وقد لاحت له طيوف من بدر يوم التقى الجمعان :
-أكره أن أقتل رجلاً كريماً مثلك.. أرجع خير لك .
أجاب علي بعزم :
-ان قريشاً تتحدث عنك أنك تقول :
لا يدعوني أحد إلى ثلاث خلال إلا أخذت واحدة منها .
-أجل .
-فإنني أدعوك إلى الإسلام .
-دع عنك هذه وهات لى غيرها .
-ادعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة .
-اذن تتحدث عنى نساء مكة ان غلاماً خدعنى .
-أدعوك إلى القتال راجلاً .
اشتعل غضب متأجج في عينيه، واقترح عن فرسه... واحتدم الصراع بين سيفين؛ سيف الإسلام و سيف الجاهلية... الإيمان و
الكفر... الغضب السماوي و الحمية.. حمية الجاهلية... و كان الرسول يدعو :
-اللهم لاتذرني فرداً و أنت خير الوارثين .

وهوى سيف كصاعقة غاضبة... ليسقط رجل اقتحم الخندق على حين غفلة ...
وعاد على وبشائر نصر عظيم تموج فوق وجهه .
هتف عمر مدهوشاً :
-هلا سلبتة درعه فإنه ليس في العرب درعٌ مثلها .
أجاب على وقد أطلَّ الإنسان من عينيه :
-استحييت أن أكشف سوائيه .
وفي حصن «فارغ» كان حسان مع النسوة و الأطفال.. و قد بلغت القلوب الحناجر .
كانت رائحة الغدر تتصاعد من حصون بني قريظة .
جلست فاطمة قرب صفية ترافقان شوارع المدينة. فجأة، لاح الخطر... عينان يهوديتان تتلصقان ورائحة الغدر تزكم الأنوف .
هتف صفية :
-يا حسان هذا يهودي يطوف حول الحصن كما ترى فانزل اليه واقتله.. وآلا دلّ علينا .
أجاب حسان وهو يبلع ريقه :
-غفر الله لك يا ابنة عبدالمطلب
نهضت صفية و قد أخذ حسان إلى الأرض. شددت وسطها. كانت فاطمة ترافق ملامح لحمزة في وجهها في عزمها و الإيمان الذي
عمر قلبها .
هيطت صفية درجات الحصن وفي قبضتها عمود .
ودوت ضربة هاشمية على رأس «السامري».. و شخصت العينان و بريق الغدر يخبو شيئاً فشيئاً ...
هتفت صفية :
-يا حسان انزل اليه و اسلبه .
تشبت حسان بالأرض، وقد دعر الجرد القايح في أعماقه .

القسم 22

الخيل تلك بسنايكها الأرض على طول الخندق و قد مضت اسابيع ثلاثة... كان مع النبي ثلاثة آلاف.. ولكن ثلاثة أسابيع من الخوف
و الرعب كافية لامتحان إرادة الإنسان... في المساء و عندما يخيم الظلام تنسل أطراف كالأشباح.. و قد ابتلي المؤمنون و زلزلوا
زلزالاً شديداً.. و رفع «ابن قشير»- و كان رجلاً ذا وجهين -عقيرته :
-محمد يعدنا كنوز كسرى و قيصر.. وأحدنا اليوم لا يأمّن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .
مضت أسابيع أربعة.. ولا شيء سوى مناوشات بالسهام.. والرياح ما تزال تعصف بشدة.. تمرّق الخيام و تقلب القدور و تطفئ
النار.. و لم يبق مع النبي إلا تسعمائة من الذين امتحن الله قلوبهم بالتقوى .
و في ليلة سوداء كسواد الكحل مد الرسول كفيه إلى السماء ينشد
نصر الله :
-اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم و انصرنا عليم و زلزلهم اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم،
وإغلبهم لا يغلبهم غيرك .
أضأت نجمة في السماء.. و قد غضبت الريح فراحت تعدو مجنونة بين القبائل .
قال النبي و قد استدعى «حذيفة» :
-أذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون و لا تحدثن شيئاً حتى تأتيني .
وانطلق «حذيفة» عبر الخندق و تسلل بين خيام مزقتها رياح الشتاء.. كان الظلام دامساً وراح يتلمس طريقه إلى خيمة أبي
سفيان حيث تحاك خيوط العناكب .
دس حذيفة نفسه في زاوية مظلمة و أخذ مكاناً بين رجلين كانا يحقدان بأبي سفيان . قال صخر بن حرب متوجساً :
-يا معشر قريش ليتعرف كل امرئ جلسه واحذروا الجواسيس والعيون .
هتف حذيفة وهو يشد على يد جلسه :
-من أنت؟
-معاوية بن أبي سفيان .
-وأنت؟
-عمر بن العاص .
خفت الأصوات و قد بدا حذيفة كأحدهم. قال أبوسفيان :
-يا معشر قريش انكم ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف... واخلقتنا بنوقريظة العهد ولقينا من شدة الريح ما ترون.. ما
تطمئن لنا قدر و لا تقوم لنا نار و لا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل .
انفجرت السماء بالصواعق.. وهطلت الأمطار غزيرة.. وهبت الرياح شديدة.. تجتث الخيام و تبت الرعب في القلوب ...
فكر «طلحة بن خويلد» أو لعله رأى أشباحاً عبر الخندق فهتف مذعوراً :
-ان محمداً قد عبر اليكم باصحابه... فالنجاه النجاه .
تمزقت جيوش الأحزاب؛ مزقتها الرياح و جنود لم يروها حتى اذا أطلّ الصباح كان كل شيء هادئاً في الجانب الآخر من الخندق .
وأرسل النبي «حذيفة» مستطلعاً فاذا كل شيء يشير إلى هزيمة ساحقة.. الخيام الممزقة متناثرة هنا و هناك.. و أكوام التبن..
ومواقد منطفئة و قدور منكفئة.. والرماد يغطي الأرض الموحلة، و عاد
«حذيفة» يحمل البشركى .
وأصدر النبي أمره بالعودة إلى المنازل بعد ثلاثين يوماً من الحصار و الخوف و القلق .
و كان بنوقريظة منكمشين في حصونهم يترقبون بخوف المصير الذي ينتظرهم... فالغدر يعقبه انتقام .
هاهي الأفاعي تولد بجورها و تمد ألسنتها متوحسة ..
هتف الرسول؛ وقد حانت لحظة الاقتصاص :
-من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة .
هزّ النبي اللواء ودفعه إلى علي :
-كن في مقدمة الجيش واسبقنا إلى بني قريظة .
وانطلق علي واللواء يخفق فوق رأسه حتى اذا دنا من الحصن ركزه في الأرض بقوة وأيقن الذين مسخوا قردة و خنازير انها الحرب
ولا شيء سواها .
وسمع علي شتائم تنهال على النبي الأمي فهتف بغضب :
-السيف بيننا و بينكم .
و استمر الحصار عشرين يوماً... و المناوشات بالسهام و النبال مستمرة.. والشتائم تنهال من فوق جدران الحصون فهتف النبي :
-يا اخوان القردة.. هل أخراكم الله و أنزل فيكم نعمته .
وشن على أول هجوم عنيف، فارتفعت راية بيضاء فوق الحصون.. و كان الاستسلام دون قيد أو شرط .

وهتف سعد وقد رضي الجميع حكمه :
 -ان لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم .
 كان سعد يعرف «توراتهم» حيث حرفوا الكلم عن مواضعه ليسوموا البشر الموت و الغناء ...
 كان يدري ما في الاصحاح من التثنية من ربح صفراء لا تبقى و لا تذر «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فان
 أجايتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير و يستعبد لك و ان لم تسالمك بل عملت معك حرباً
 فحاصرها و إذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، و اما النساء والأطفال و البهائم و كل ما في المدينة
 غنيمة فتفجها لنفسك و تأكل غنيمة اعدائك التي أعطاك الرب الهك .»
 و أذاقهم سعد حكم التوراة و كانوا أذاقوها الأمم .
 وهكذا تساقطت رووس الخيانة و العدر... و سقط رأس حى بن أخطب مخطط فكرة الغزو والغناء وفر السامريّ إلى «خبير» لا يفتأ
 يعبد العجل من دون الله .

القسم 23

عاد السلايم يرفرف فوق المدينة و كلمات السماء تتردد بين سعف النخيل وعروش الأعناب .
 وعاد علي يعمل في الأرض... يسقى الزرع و يفجر الينابيع يريد للأرض أن ترتدي حلّة خضراء ...
 عاد الأطفال يلعبون في الأزقة... ضحكاتهم البريئة تتردد في الفضاء الأزرق .
 و مر النبي في طريقه إلى المسجد تحفه كوكبة من أصحابه .
 و ركض الحسن و الحسين و كانا يلعبان مع الأطفال و خف النبي لاستقبال ريحانتيه من الدنيا، و البسمة تطوف فوق وجهه ...
 حمل النبي ولديه... شم الجنة فيهما... استنشق عبير الريحانين.. و حملهما على عاتقه ..
 والتفت إلى اصحابه :
 -من أحب هذين الغلامين وأمهما و أباهما فهو معي في الجنة .
 قال عمر مغتبطاً و هو يرى أجمل منظر :
 -نعم الفرس فرسكما .
 فأجاب النبي مبتسماً :
 -و نعم الفارسان هما .
 شم المهاجرون رائحة وطن بعيد و تلفتت العيون صوب الجنوب و تلفتت القلوب؛ و طافت صور جميلة لمكة مرابع الصبا و ذكريات
 الطفولة فاذا الحنين نهر حزين يجري بصمت و الخريف فصل الوداع يستثير هواجس العودة واللقاء وهاهي ستة أعوام تنطوي و
 المهاجرون ما يزالون يقاومون عواصف الصحراء و الزمان... يحلمون بالعودة إلى ديار الحبيب... الكعبة بيت ابراهيم و اسماعيل.. و غار
 حراء في جبل النور.. و ذكريات الجهاد .
 وأطل «ذوالقعدة» يوقظ في النفوس نداء ابراهيم فتطلق القوافل بين الأودية .. فالقلوب تهوى إلى بقعة مباركة حيث أول بيت وضع
 للناس .
 و عمت الفرحة المدينة... لقد أعلن النبي رغبته في أداء العمرة و زيارة البيت العتيق.. و انه لا يريد حربا مع أحد. أنه ينشد
 السلام.. و هل الإسلام يعنى شيئاً سوى السلام .
 وطار النبا في الجزيرة راية بيضاء بياض حاتم في الفضاء الأزرق .
 و اجتمع الف واربعمئة ممن تخفق قلوبهم لمكة و أداء شعائر الحج... و تقدم النبي على ناقته «القصواء» زورقاً ينساب فوق امواج
 الرمال.. و كان «اللواء» يخفق فوق هامة علي.. وساق النبي من الهدى سبعين.. و السيوف في الأعماد، حتى اذا بلغ ذا الحليفة،
 أجزم فيها ولبى .
 رددت الصحارى هتافات التوحيد :
 -لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك ..
 وفي «عسفان» حط النبي الرحال.. يمد يد السلام ..
 وجاء رجل من أم القرى يسعى :
 -يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بك، فلبست جلد النمر... وقد اجتمع الرجال و النساء و الأطفال «بذي طوى»... و خيلها الآن
 في «كراع الغميم» .
 قال النبي بحزن :
 -يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني و بين العرب.. ما تظنّ قريش.. والله لا أزال أجاهد أو تنفرد هذه
 السالفة .
 وكان الرجل يتأمل سوائف النبي المتلألئة وقد انفرجت عن شعر النبي المتموج تموج الصحارى و هو يكاد يلامس منكبيه .
 و جلس النبي يفكر.. يفكر في قوم كذبوه و آذوه.. و ألبوا العرب عليه يريدون أن يطغثوا نور الله.. و الله متم نوره .
 قال النبي و قد أهدق به أصحابه :
 -من يدلنا على طريق غير طريقهم؟
 فنهض رجل من أسلم و كان عالماً بخفايا الصحراء و بطيون الأودية .
 وسار ألف و أربعمئة رجل يتقدمهم آخر الأنبياء و قد هبت نسائم وطن بعيد .
 كانت المغازات و عرة كثيرة الحجارة كأنها شظايا بركان انفجر قبل آلاف السنين . حتى اذا وصلوا ارضاً سهلة انعطفوا جهة اليمين
 حيث الجادة المؤدية إلى «ثنية المراد» مهبط «الحديبية» من أسفل مكة .
 توقفت القصواء ثم بركت.. و توقفت الجموع، قال قائل :
 -حرمت الناقة وأجهدت .
 فقال النبي: لا.. ولكن حبسها الذي حبس الفيل عن مكة ..
 وأردف و هو ينزل عن «القصواء» :
 -و الله لا تدعوني قريش إلى خطة تسألني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم أيها ...
 والتفت إلى الجموع :
 -انزلوا .
 قال أحدهم و هو يستعرض الوادي ببصر نافذ :
 -يا رسول الله ما بالوادي ماء .
 أخرج النبي سهماً من كنانته و أشار إلى بئر معطلة .
 -اغرز في جوفه .
 كانت هالة من النور تغمر رجلاً أرسلته السماء ليحيي الأرض بعد موتها .
 انفجرت البئر بالماء نميماً فخشع الذين هاجروا والذين قالوا انا انصار الله .

القسم 24

كان الجو مشحوناً بالقلق ما بين «الحديبية» و مكة. قريش لا تدعن للحقّ و لا تصيخ السمع لصوت العقل، فتفتح أبواب مكة لقوافل الحجيج. و بعث النبي «عثمان» فله قرابة بأبي سفيان .

-أخبر قريش أنّا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زوّاراً للبيت، معظمين لحرمة و معنا الهدى ننحره و ننصرف .

و مضى عثمان إلى مكة و لم يعد.. مضت ثلاثة أيام.. اختفت فيها أخباره، وسمعوا شائعات عن مصرعه مع عشرة من المهاجرين دفعهم الشوق إلى زيارة أهليهم .

عندها وقف النبي تحت ظل شجرة في الوادي أسند جذعه إلى جذعها.. وأحرق أصحابه و هم يعاهدون على الموت من أجله... و باركت السماء عهد المؤمنين.. و قد رضي الله عنهم .

الجو يزداد تازماً و لما يعد عثمان بعد ...

وجاءت رسل السلام.. وقد أدركت قريش أن الخطر قاب قوسين أو أدنى .

جاء «سهيل» يعرض على النبي شروط قريش :

-إن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين .

-أن يرد محمد من يأتيه من قريش مسلماً و لا تلتزم قريش بردّ من يأتيها من عند محمد .

-أن يعود محمد و أصحابه هذا العام دون عمرة و أن يأتوا في العام القادم .

-من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك و من أراد الدخول في عهد محمد جاز له ذلك .

كان النبي يصغي إلى عرض قريش يلقى «ابن عمرو» وقد بدا بعض الصحابة ممتعضاً وكاد عمر أن ينفجر بعد ان سمع النبي يستدعي علياً :

-اكتب يا علي: بسم الله الرحمن الرحيم .

-اعترض سهيل :

-لا أعرف هذا.. اكتب باسمك اللهم .

-استأنف النبي :

-اكتب ذلك واكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

قال سهيل :

-لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك.. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

أطل الحزن من عيني الرسول :

-والله اني رسول الله وان كذبتُموني... اكتب يا علي محمد بن عبد الله وامح رسول الله .

رفع علي رأسه وقد شعر بالغضب يتفجر في صدره .

-ان قلبي لا يطاوعني... و الله لا أمحوها .

تناول النبي الصحيفة و محاها ..

واستأنف على يثيب بنود السلام .

و نهض الوفد عائداً إلى مكة ...

لم يتمالك «عمر» اعصابه فتقدم من النبي بطوله الفارع و عيناه ترفقان بغضبٍ عارم :

-الست نبى الله حقاً؟

أجاب النبي بهدوء :

-بلى .

-أليس قتلانا في الجنة و قتلهم في النار؟

-بلى يا عمر .

هتف عمر وقد اهتزت دعائم الإيمان في قلبه :

-قَلِمَ نعطى الدنيا في ديننا اذن؟ !

أجاب النبي و هو يحاول إعادة الطمأنينة إلى قلبه :

-انى رسول الله و لست أعصيه وهو ناصرى .

قال عمر بحدة :

-أو لست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟

أجاب محمد بصبر الأنبياء :

-بلى يا عمر... فأخبرتكَ انك تأتيه عامك هذا؟

أجاب عمر مخذولاً :

-لا .

-فانك آتية و مطوف به .

وظل «عمر» هائجاً لم تغلج كلمات الرسول في إعادة السلام إلى نفسه .

هرع الرجل الفارع إلى صاحبه وقال بعصبية :

-يا أبا بكر اليس هو برسول الله؟

-نعم .

-اولسنا بالمسلمين؟

-أجل يا عمر .

-أوليسوا بالمشركين؟

-ماذا تعنى؟

-فعلام نعطى الدنيا في ديننا؟

نظر أبو بكر إلى صاحبه بأسف و أدرك ان صرح الإيمان يهتزّ في أعماقه بشدّة، تتمم أبو بكر :

-يا بن الخطاب انه رسول الله ولن يعصى ربه ولن يضيعه .

عمر ما يزال ثائراً يبحث عن شيء... عن شخص يطفئ به النار التي تستعر في صدره... و قد حانت اللحظة المناسبة لنسف السلام مع قريش .

تمكن «أبو جندل» بن سهيل من الافلات من قبضة قريش، وجاء بنوء بالسلاسل والقيود .

كان منظره يدعو إلى الشفقة، اعترضه أبوه و كان قد أمضى عهداً مع النبي .

هتف الشاب المثقل بالحديد والقهر :

-يا رسول الله.. يا معشر المسلمين .

والتفت سهيل إلى النبي .

-يا محمد بيننا و بينك العهد .

-صدقت .
هتف أبو جندل :
يا للمسلمين أردد إلى المشركين ليفتنوني عن ديني .
المسلمون ينظرون إلى أخ لهم لا يملكون له ضراً ولا نفعاً .
هتف النبي يشد على يده من بعيد :
-اصبر يا أباجندل و احتسب سيجعل لك الله ولمن معك فرجاً و مخرجاً .
لم يتمالك عمر كعادته فحف إلى ابن سهيل.. اقترب منه هامساً :
-إنما هم مشركون و دم أحدهم دم كلب .
اقترب عمر أكثر و كشف للشباب مقيض السيف و كرر قائلاً :
-المشرك دمه كدم الكلب .
أدرك الشاب ان عمر يغريه بقتل أبيه فاكتفي بنظرة طويلة إلى عمر و لم يقل شيئاً .
كانت كلمات النبي ما تزال تتردد في أذنيه و في قلبه ثم كيف له أن يقتل أباه ؟ بل كيف للمسلم أن يغدر أو يفتك و يخون العهد الذي أبرم قبل لحظات.. و هل ستسكت قريش على قتل رجل كان يفاوض باسمها و يدافع عن آلهتها؟
كانت الأفكار تصطرع في رأسه كخيول في معركة.. و هو يجرجر خطى واهنة عاتداً مع أبيه .
وانطوى نهار ذلك اليوم، وقد هبت نسائم السلام فوق رمال الجزيرة ...
وفي السماء و عنديا كانت النجوم تبيض في السماء كقلوب حاملة هبط جبريل يحمل بين جناحيه سورة «الفتح» .
وانساب نهر سماوي و الرسول يتلو :
-إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً .
وانبعث صوت في الظلام :
-وأبى هذا الفتح و قد صدونا عن البيت؟
أجاب النبي :
-بل هو أعظم الفتح.. لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم و ان يرغبوا اليكم في الأمان. و ردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتح .
هتف المسلمون :
-صدقت يا رسول الله .
و مضت أيام على السلام و ثاب عمر إلى رشده فتمتم أسفاً :
-ما شككت منذ اسلمت إلا ذلك اليوم .

القسم 25

عاد رسول الله إلى المدينة، والفرحة تملأ صدره بفتح الله، فقد أمن جانب قريش و آن للدين الجديد أن يعبر شبه الجزيرة إلى العالم كله .
توجه النبي كعادته إلى المسجد فصلّى ركعتين، غسلت عنه عناء السفر وهموم الحياة، و نهض النبي لزيارة ابنته.. ذكرها من خديجة وكوثره الذي وهبه الله ...
قرع الباب فهبت فاطمة للقاء النبي، كانت تحاول إخفاء ما تعانیه من إعياء و تعب .
فتحت الباب و البسمة تشرق في وجهها، تأمل النبي وجه ابنته الوجه المشرق تشوبه صفرة فبدا كقمر انهكه السهر في ليلة شتائية طويلة .
قال الأب يحزن :
-يا بنية ما هذا الصغار في وجهك و تغير حدقتيك؟
أجابت فاطمة بصوت واهن :
-يا أبة ان لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً... وقد بكى الحسينان من شدة الجوع حتى غلبهما النوم ..
أيقظ النبي ريحانتيه.. وضعهما في حجرة وقد نسيا ألم الجوع كصفورين فرحين بدفء العيش .
كان على يبحث عن يقرضه دريهمات يسد بها رمق اسرته، و كانت الشمس ترسل أشعتها ملتهبه. لم تمض مدة حتى وجد من يقرضه ديناراً فانطلق يشتري به شيئاً .
المدينة تبدو مهجورة و قد فر أهلها من الرمضاء و الحر .
من بعيد لاح له رجل بمنشى على غير هدى.. دقق النظر فيه و لما اقترب منه بادره عليّ :
-ما الذي أخرجك يا مقدار في هذه الساعة؟
-الجوع يا أبا الحسن.. عضنى وأهلي الجوع.. وأبحث عن يقرضني درهماً أو ديناراً .
ان للجوع فعلة العجيب في النفوس.. تارة يهديها فتسمو إلى السماء و تارة ينحط بها إلى أسفل السافلين. الجوع يصنع ملائكة و شياطين.. وكلا الخيارين يتوقفان على إرادة الإنسان أو على غريزة ذلك الحيوان القابع في الأعماق المظلمة وليس في حياة علي من وقت لكى تنشب معركة بين الذات و الايثار لأنه لا يوجد في أعماقه المضيئة من يعترض على إرادته التي صقلتها النبوة ..
وهكذا قدم على كل ما يملكه إلى أخيه وعاد إلى البيت خالي اليدين .
كان المنزل هادئاً تعمرة رحمة من السماء و وجد في الحجرة رسول الله.. و كان الحسينان في حجرة و فاطمة تصلّى في المحراب وقد ملأت فضاء الحجرة رائحة طيبة لطعام طيب ولما جلس على قبالة رجل رياه في حجرة تمتم النبي و هو يرمق السماء بخشوع :
-اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً .
فرغت فاطمة من تبتلها و مدت يدها إلى جفنة مغطاة.. و كان في الجفنة خبز و لحم .
قال علي متعجباً :
-يا فاطمة أتى لك هذا؟
أجابت فاطمة بنيت رسول السماء :
-هو من عند الله.. ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .
قال النبي مبتسماً :
-إن مثلكما كمثّل زكريا إذ دخل على مريم فوجد عندها رزقاً
قال: يا مريم أتى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .
لو أريحت الحجب عن العيون لرأى سكان المدينة منزلاً إلى جوار المسجد.. ولو دققوا النظر لرأوا أثر جبريل في حجراته. يلج المرء فيجد نفسه في بقعة لا تتمي إلى طين الأرض... إلى عالم من تراب... بقعة اختارتها الملائكة يوم هبطت على الأرض.. يوم اتصل النور بالطين ليولد الإنسان السماوي الذي انطوت في أعماقه أسرار الوجود .

كانوا خمسة: محمد.. على.. فاطمة.. حسين و حسين... اسماء ولدت يوم عطس آدم... واستنشق نسمة الحياة، و يوم قال الله لنوح: ان اصنع الفلك بوحينا.. و يوم فار التنور كان نوح يتأمل السماء و هي تنهمر مطراً كأفواه القرب و جبال من الغيوم تتراكم بعضها فوق بعض.. ولتتحول تلك الأرض الجرداء إلى بحر متلاطم الأمواج و سارت السفينة باسم الله تشق طريقها في موج كالجبال.. ومقدمة السفينة تعلو و تهبط مالها من قرار. أصوات الحيوانات وهدير الموج و تمتد دعاء المؤمنين تمتزج تطهر القلب فيتألق الأمل.. الأمل بمستقبل طاهر للأرض. السفينة تجرى لمستقر لها.. وقد اجتمع المؤمنون أمام خشبة صغيرة مستطيلة الشكل فيها اسماء أثارت دهشتهم و حركت كوامن الأسئلة في أعماقهم.. كلمات صغيرة واضحة مكتوبة بلغة شعب عاش قبل الطوفان؛ كلمات تحمل لهم الأمل بالخلاص بغصن زيتون أخضر... كلمات تتألق بألوان فزح.. كلمات حفرها نوح تعويذة أمل في الحياة :

-يا إلهي.. و يا معيني .
 برحمتك و كرمك ساعدني .
 ولأجل هذه النفوس المقدسة .
 محمد .
 ايليا .
 شبير .
 شبير .
 فاطمة .
 الذين هم جميعهم عظام و مكرمون .
 العالم قائم لأجلهم .
 ساعدني لأجل أسمائهم .
 أنت فقط تستطيع أن توجهني نحو الطريق المستقيم .
 و تخمر السفينة عباب المياه حتى استوت على الجودي و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي... و عادت حمامة بيضاء تحمل غصن الزيتون.. و قد تألقت في السماء ألوان الأمل و الربيع .
 و هميس النبي في أذن التاريخ و هو يضم ريحانتيه :
 -مقل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق .

القسم 26

الصحراء مدّ البصر... صحراء مليئة بالرمال.. تموج بالأسرار.. والغدر.. و خشخشة الأشواك تبوح بأسرار الليل .
 آثار مشبوهة فوق الرمال الممتدة بين حصون «خبير» و مضارب «غطفان»، و عيون تبرق في الظلام.. ورائحة مؤامرات تدبر في الخفاء .
 فرسان «محمد» يجوبون الصحراء يترصدون الذين كفروا أنهم لا أيمان لهم... الأثار الغريبة فوق الرمال و الرجال المثلثون و العيون التي تبرق في الظلام و خشخشة الأشواك في الليل و أصوات كفيفيح الأفاعي... ما بين حصون «السامري» و مضارب غطفان عناكب «خبير». تحوك شباكها.. و «غطفان» تكشف عن أنياب ملوثة بالصيد... و تسمع أهل البادية عن عجل يخور في حصون وسط الرمال .
 واهترزت رابية العقاب في قبضة على، و غادر آخر الأنبياء المدينة في ألف و ستمئة محارب. ولكي يفوت الفرصة على العقل اليهودي الذي جيل على الغدر فقد تحتم على قوات المسلمين أن تقطع المسافة بأقصى سرعة ..
 لم تمر ثلاثة أيام حتى وصل النبي بجيشه مشارف خبير... و كان الظلام يغمر الأشياء يحيطها بالغموض و الأسرار... و بدت الحصون في رهبة الظلام كائنات خرافية رابطة فوق الأرض .
 قبل أن يطلع الفجر كان المسلمون يحيطون بخبير من كل الجهات و قد استكملوا احتلال بساتين النخيل المحيطة .
 «العجل السامري» يتطلع إلى أوثان «غطفان» «التبر» يستنجد «الحجر» «العجل» يطلق خوارجاً عالياً.. و «الأوثان» حجارة صماء لا تفقه شيئاً مما يدور .
 طلع الفجر، و اخرجت الأفاعي رؤوسها، صرخ أحدهم مأخوذاً بهول المفاجأة :
 -محمد و الخميس !
 كان اسم «محمد» يخلع قلوبهم.. لا يتحملون سماع هذا الاسم.. كما كانوا يتميزون غيظاً لدى ذكر «جبريل» لو كان غير جبريل يحمل ربيالة السماء إلى ابن مكة لكان لهم موقف آخر ...
 قال النبي مستبشراً وهو يراقب دعر الأفاعي :
 -الله أكبر! خربت خبير... أنا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .
 الصحراء تراقب معركة و شيكة.. معركة مدمرة سيكون لها شأن .
 ووقف التاريخ يفضى إلى ما يدور بصمت .
 اجتاح المسلمون المناطق المشجرة ما بين الحصون... ووقفت جدران «النتاة» و «الصعب» و «ناعم» و «الشق» و «القموص» و «الوطيح» و «سلام» ثابتة في وجه الهجوم و دار قتال رهيب في الشوارع .
 سقط خمسون جريماً من المسلمين.. صمد اليهود قاتلوا بضراوة.. على خبير آلا تسقط... لأن سيقوطها يعني أن يعود السامري إلى التيه مرة أخرى.. سوف يشد عباءته و يرحل إلى سيناء ينقب في آثار القوافل المسافرة لعله يعثر على أثر «الرسول» فيأخذ قبضة أخرى .
 استشهد محمد بن مسلمة؛ ترصده يهودي من فوق الحصن ثم دفع عليه الرحي فسقطت عليه .
 الحصون منيعة واقفة كالجبال... والأمل قطرات من ندى تبخرت لدى شروق الشمس و «السامري» ينظر باستعلاء و شماتة إلى نبي العرب .
 نشر الظلام ستائره... و اشتعلت موافد في قلب الليل... و النسائم تداعب سعفات النخيل.. والأفاعي تخرج رؤوسها تحاول أن تصغي لما يدور حول الموافد .
 أطرق أبوبكر برأسه و تتمم أسفاً :
 -حصون مستعصية منيعة و اليهود مسلحون بسلاح حسن... و «القموص» حصن لا يفتح.. أرأيتم الخندق حوله.. ارجو آلا يكون رسول الله غاضباً مني .
 اجاب عمر :
 -ليس الذنب ذنبك يا صاحبي.. أنا أيضاً لم استطع ان أفعل شيئاً لقد قضيت النهار كله نهجم و يهجمون ولكن إخوان الفردة يخرجون البنا من خلف الأشجار كالشياطين .
 علق «أبوعبيدة»: «
 -اسمعتم ما قال رسول الله .
 -و هل ينسى قوله .

-كلماته ما تزال ترتّب في أذني: لأعطينَ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ رسوله و يحبُّه اللهُ و رسوله .
-ترى من سيكون صاحب الراية .
-الأمر واضح.. أنه علي .
-ولكن علياً أرمد !!
-ربما سلّم الراية إليّ .
-ماذا تقول يا أباحفص؟
-في الصباح يعرف القوم السرى .
كانت النجوم تومض من بعيد.. نام البعض و ظلّ البعض ساهراً يحلم برؤية حبّ أزلية .
ونام أبوحفص بعد أن عزم على أن يكون غداً أقرب الناس إلى النبي عله يسلمه الراية التي أصبحت حلمه تلك الليلة .

القسم 27

طلع الفجر و تنفس الصباح.. و زقزقت العصافير في أعشاشها.. واستيقظت الكائنات لتبدأ يوماً جديداً ...
رماد الفجر يتبدد شيئاً فشيئاً.. وزرقه السماء الفيروزية تصبح شيفافة رائعة... و قد برغت الشمس.. تألقت خلف ذرى النخيل .
بدت الحصون ذلك الصباح كابوساً يجثم فوق الصدور. صخرة تحطمت فوقها المعاول ...
تحلّق المسلمون حول النبي.. يتطلعون إلى رجل يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله ...
و هتف النبي :

-أين علي؟
وتقدم فتى في الثلاثين أو يزيد فاستلم راية العقاب وراح بصغي إلى صوت سماوي :
-انفذ علي ريسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فان لم يستجيبوا فقاتلهم.. انطلق فتح الله عليك .
كان علي علي أن يقود نفس القوة التي هزمت مرتين... فقد عادت مرة تلوم أبابكر و أبوبكر بلومها.. و عادت تحت راية عمر تجبته و يجنبها ...

هرول على لبيب الحماس في جنوده فبدأ بجلته الأرجوانية جمره متألقة... و عند ما صار قريباً من «القموص» نزع درعه ليكون أكثر قدرة في الحركة، و أمر جنوده أن يفعلوا ذلك .

رفض اليهود سياحين دعوة الإسلام ونداء السلام. و كان خيار الحرب هو الطريق لإحراق العجل .
كان منظر علي بلا درع قد حرك شهوة الغدر و الانتقام في نفوسهم... فراح شجعانهم يخرجون مدججين بالسلاح.. و كانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر عند قدميه .

الذين كانوا يراقبون الصراع.. أدركوا أن هناك سرّاً في انتصار عليّ.. رأوا بأنهم كيف هزم الحديد أمام قلب المؤمن ..
وهبط «مرحب» درجات الحصن.. كتلة هائلة من الحديد والبأس.. في قبضته حربة ذات ثلاث رؤوس كأفعى اسطورية.. تقدم «مرحب» ينقل خطاه المتقلبة بالزرز و الحديد.. ليس هناك في كل جسده الفارع ثغرة يمكن للسيف أن ينفذ فيها .

وتوقع المسلمون واليهود.. توقعوا جميعاً نهاية عليّ.. تقدّمت كتلة الحديد.. ووجه مرحب برؤوسها الثلاثة.. وكادت أن تنفذ في صدر علي .

ارتد علي إلى الوراء ثم ففز في الهواء ليهوي بضربة هائلة أودعها غضب السماء ... تحطّم الحديد. مرّت لحظة صمت قبل أن ترتطم كتلة هائلة بالأرض محدثة دويّاً تتخلع له القلوب المذعورة. وقد قتل داوود جالوت، واندفع علي بعد أن حطّم الغرور اليهودي إلى باب الحصن... لينتزع وسط دهشة الجميع، وأصبح جسراً فوق الخندق يندفق عبره المهاجمون.. و سرعان ما سقط «القموص» و «الوطيح» و «السلالم» و سقطت خبير كلها ..

اطلق العجل صرخة استغاثة قبل أن يحترق.. و تذرّو الريح رماده في الصحراء، و كان السامريون قد أقسموا قالوا :
-لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى .

و قال لهم الله: كونوا فردة خاسئين .
طارت الفرحة للنبي فراشة ترفرف... على يصنع الفرخ لمحمد ...

وها هو أخوه جعفر يعود من أرض الحبشة... عاد يمخر البحر الأحمر و يطوي رمال الصحارى و معه الذين آمنوا... الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن قالوا ربنا الله .

وعانق النبي أحاً لعليّ وأبناً لحامي آخر النبوات في التاريخ، هتف النبي و يبايع الفرخ تتدفق من عينيه :
-ما أدركي بأيهما أشدّ سروراً. بقدم جعفر أم بفتح خبير .

و قال أبوحفص لما رأى أسماء :
-هذه البحرية، هذه الحبشية .
و التفت إليها قائلاً :

-لقد سبقناكم في الهجرة... فنحن أحقّ برسول الله منكم .
بركان غضب ينفجر في أعماق امرأة هاجرت مرتين... أعلنت اضرابها عن الطعام حتى ترى رسول السماء ...

-يا رسول الله ان ابن الخطاب يقول نحن أحقّ برسول الله سبقناكم بالهجرة .
قال النبي :

-فما كان جوابك له؟
قالت أسماء :

-قلت له: كلاً والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم و يعظ جاهلكم.. و كنا في أرض البغضاء بالحبشة .
-أجل والله.. انه ليس بأحقّ بي منكم.. له و لأصحابه هجرة .
ولكم أهل السفينة هجرتان .

غادرت الأفاعي ججورها... محطة الأنياب.. وعاد السلام يرفرف فوق الأرض... وشدّ السامري الرجال. التفّ بعباءته ميمماً وجهه نحو أرض التيه .

مادت «فدك» بأهلها... لقد جاء «محمد» تحمله الملائكة تتحف فوق رأسه أجنحة جبريل .
وجاء رجل من تلك النواحي يسعى :

-يا محمد لكم الأرض.. ولنا السلام .
-ولكم نصف ثمار الأرض.. والسلام .
و لما قال الله: «وأت ذا القربى حقه .»

أعلن النبي :
-إن فدكاً لفاطمة .

ومن ذلك اليوم أضحت «فدك» رمزاً لانتصار الإنسان على نفسه.. هزيمة «الاسخريوطي» و «احتراق العجل» .
و ستبقى فدك رمزاً للأمانة التي أبت السماوات و الأرض أن يحملنها و حملها الإنسان .
و كانت فدك رمزاً لخلافة الإنسان على الأرض ..

ستكبر «فدك» و سيكون لها وجود في الجغرافية و في التاريخ ..
سوف تستوعب عدن، سمرقند أفريقيا، سيف البحر مما يلي الجزر و أرمينيا و سوف تكبر لتشمل التاريخ البشرى بأسره .
لقد وهب الله مريم كلمته في المسيح و أعطى فاطمة فدكاً .
وأراد اليهود بغيبي كيداً.. و أرادوا أن يصلبوه فرفعه الله إليه .
وفدك ماذا سيحل بها يا ترى... كيف سيتصرف «الوثن» العربي القابع في الأعماق المظلمة ..

القسم 28

حان وقت الوفاء بالنذر... فلقد نهض الحسان من فراش المرض.. وعادت إلى وجهيهما دماء العافية، السماء تنتظر نذراً نذره الإنسان.. نذراً يقدمه إلى نفسه ليكون قريباً من عوالم مغمورة بالنور.. لا شيء في منزل فاطمة .
انطلق على إلى «شمعون» رجل من خير؛ رجل شهد انهيار حصون مليئة بالسلاح.. بالذهب.. بالذكاء أمام رجل لا يملك سوى سيف وقلب تنطوي في حناياه النجوم .
و ها هو اليوم يأتي يطلب شيئاً عجباً.. انه يريد قرصاً.. ثلاثة أصواع من شعير.. الرجل الذي اقتلع باب «القموص» و قهر خير.. جاء يطلب حفنة من شعير... و امرأته بنت محمد... تملك أرض «فدك» .
تمتم شمعون و قد هزته المفاجأة :
-هذا هو الزهد الذي أخبرنا به موسى بن عمران في التوراة !
طحنت فاطمة صاعاً.. الرحي تدور و «فضة» فتاة تعيش في منزل فاطمة.. تجمع الدقيق .. صار الدقيق عجيباً.. ثم خمسة أقراص لكل صائم قرص شعير .
النجم المهيب يهوى باتجاه المغيب.. يرسل أشعة الوداع يعلن عن نهاية يوم من حياة الإنسان و الأرض.. الأسرة الصائمة تنهياً للافطار.. لقمة خبز تقيم أود الجسد الأدمي ليكمل رحلته باتجاه النور .
هتف انسان جائع :
-مسكين! اطعموني أطعمكم الله .
الصائم في لحظة الافطار يدرك آلام الجوع عندما تملو المعدة خاوية تبحث عن شيء تمضغه و لآ مضغت نفسها .
قدم الصائمون خبزهم.. و أظفروا على الماء.. و استأنفوا رحلة الجوع.. والجوع زاد المسافر في ملكوت السماء... حيث تلال النور وبيجرات تزخر بالنجوم.. الجوع يلجم الشيطان القابع في الظلمات... يسحقه فاذا هو خائر كتور محطم القرون .
ومر يوم آخر و الصائمون في رحلة إلى اكتشاف ينابيع الحب الأزلي... و كل شيء آيل إلى الزوال إلا الحب... و الحب نداء الله إلى النفوس البيضاء .
ومر يتيم... يالوعة اليتيم في ساعة الغروب.. الكائنات تعود إلى أوكارها و الطيور إلى أعشاشها والأطفال إلى أحضان زاخرة بالدافء .
وفي ساعة الغروب تتجمع الدموع في عيون اليتامى كسماوات مشحونة بالمطر... يتجمع البكاء في القلب.. و المرارة في النفس.. فكيف إذا اجتمعت مع الجوع... و هل تتحمل نفوس الأطفال البرد و الجوع ..
نادى اليتيم في لحظة الغروب الحزين :
-اطعموني... مما أطعمكم الله .
هناك في أعماق النفوس البيضاء كنوز من اللذة أين منها لذات البطن... فكيف مع نفوس براها الجوع والنذر حتى عادت شفافة كالضياء ساطعة كالنور ..
لبى الصائمون نداء اليتيم.. فباتوا ليلتهم يطوون رحلة مضنية تكاد تمرق الجسد و تحيله إلى حطام.. حيث يشهد عالم الإنسان اللانهائي انتصار الملائكة و هزيمة الشيطان.. إلى الأبد .
السماء تراقب نفوساً في الأرض تطوى مسافات الجوع وفاءً لنذرها .
وفي اليوم الثالث مر أسير ينشد لقمة خبز أو تمريرات .
الأجساد ترتعش أمام أمواج الجوع.. العيون غائمة... والوجود يغمره ضباب و دخان و رياحين النبوات تهتز.. تذبل أو تكاد، و النفوس تشتت نصوعاً والورود تضوعاً .
فاطمة تزداد نجولاً.. غارت عيناها.. وصوتها زاد وهناً على وهن وهي قائمة تصلي في المحراب ..
وفي منزل آخر الأنبياء هبط جبريل يحمل هدية السماء... سورة الإنسان و انها :
-بسم الله الرحمن الرحيم .
هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً .
انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً .
انا هديناه السبيل اما شاكراً و اما كفوراً .
أنا اعتدنا للكافرين سلاسل و أغلالاً و سعيراً .
إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً .
عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً .
يوفون بالنذر و يخافون يوماً كان شره مستطيراً .
و يطعمون الطعام علي حبه مسكيناً و يتيماً و أسيراً .
أئما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً و لا شكوراً .
أنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمططيراً .
فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرةً و سرورا .
وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ...
ان هذا كان لكم جزاءً و كان سعيكم مشكوراً .
ورأت فاطمة في تلك الليلة ما لا عين رأت و سمعت ما لا أذن سمعت و لم يخطر على قلب بشر .
رأت اشجاراً خضراء خضراء مدت عروقها في كتيان من المسك و كانت الأنهار الصافية المتألقة تتكسر امواجها عند جذوع الأشجار.. و نسائم تمر تلامس الأغصان فتصطفق الأوراق بصوت حالم.. وقد بدت كبائس اللؤلؤ الرطب في ذرى الأغصان... و تبدت الثمار في غلف الأكمام... و قصور الزبرجد متناثرة هنا و هناك كالأحجار الملونة.. ينابيع السلسبيل تتدفق... و أطفال كاللؤلؤ يحملون كؤوس الفضة ملأى بالعسل المصفى... يتألقون في الظلال و في الضياء... في ربيع دائم.. لا فيه شمس و لا زمهرير .
سادة القصور يرتدون ثياباً من سيندس أخضر و من استبرق.. في أيديهم كؤوس طافحة يستمتعون باحتساء شراب الزنجبيل.. الوجوه طافحة بالسعادة الأبدية.. وجوه نظرة.. نحتها النسيم الربيعي المشبع بشذى الورد والأزهار الخالدة .
رأت فاطمة كل ذلك.. ساحت بين تلال المسك و قصور الزبرجد.. غرقت في بحيرات السعادة ...
كادت تدوب شوقاً فهناك الله.. و ما أحلى أن يجاور الإنسان مبدأ الانسان، و قد تحرر تماماً من ويلات الأرض .

القسم 29

مضى التاريخ يجوس خلال الرمال.. ينظر بدهشة إلى أرض أَرادها الله أن تكون نحلة لبنت رسوله، مضى التاريخ يجوس خلال الرمال.. ثلاث سنين سوياً يشعل الحوادث هنا وهناك ...
وقعت «مؤتة» و قد قتل «جعفر».. قطعت يداه فأبدله الله جناحين يطير بهما في الجنة .
فتحت مكة.. تهاوت الأصنام والأوثان صارت أنقاضاً.. وقد دخل حفيد إبراهيم المعبد يحطم بفأس جدّه وجوه الألهة... وعادت حمائم السلام إلى وادٍ غير ذي زرع .
وتوقف التاريخ في وادي حنين... يوم اعجبت المسلمين كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ثم أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين .
دارت رحي فاطمة و دار الزمن دورته و مرّ عام فإذا رسول الله يتحدّى دولة الروم و جيوش هرقل .
القبائل العربية ترسل وفودها إلى المدينة وقد فاءت إلى دين الله.. و رأى الناس وهم يدخلون في دين الله أفواجا .
وقد أسلم كعب فأعطاه نبي الله «البردة»، و أسلم باذان بن ساسان في اليمن .
وجاء جبريل يحمل سورة «براءة»، و أذان من الله و رسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنّ الله بريء من المشركين و رسوله .
ودوت كلمات علي في الكعبة وما حولها :
-لا يدخل الجنة كافر، و لا يخرج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .
ثم فرضت السماء الزكاة حتى لا تكون الأرض دولة بين الأثرياء... و يضع الفقراء .
و بنى المنافقون مسجداً هو مسجد ضرار.. و ان المساجد لله... و ما كان لله يبقى... و ما كان لله يذهب هباءً منثوراً ...
أرسل النبي من يشعل النار في مسجد لم يؤسس على التقوى فالتهمته أسنة النار و ولى المنافقون الأدبار... و لاذوا بالفرار.. و ذرت الريح «ضرار».. رماداً و غباراً .
ودارت رحي فاطمة و دار عام.. وجاء وفد من نصارى نجران.. جاء يجادل في طبيعة المسيح وفي مريم؛ جاءوا يقولون أنّ عيسى ابن الله. وقد قال الله :
-ان مثل عيسى عند الله كمثّل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ..
-من تراب؟! !!
-كلمته القاها إلى مريم .
-بل ابن الله .
-يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .
-لا ندع الرب يسوع و قد صلب من أجلنا؛ من أجل الإنسان الخاطئ .
-تعالوا ندع ابناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتل فنجعل لعنة الله على الكاذبين .
كان «العاقب» يراقب موكبا عجيباً... رجل يحمل في روحه ملامح المسيح.. يمسك بيده اليمنى صبيّاً في السابعة و في اليسرى صبيّاً في السادسة و معه شاب يكاد أن يكون له ظلّاً و خلفهم فتاة تشبه مريم .
نصارى نجران في حيرة و رأى العاقب في السماء دخاناً... و تلك الوجوه الخمسة تتألق في الضوء... و الفضاء مشحون بالغضب و اللعنة
قاب قوسين أو أدنى ...
تأثرت القلوب و دمعت إعيون خشية لله ...
و مد العاقب إلى النبي يد السلام، فقال النبي :
-لنجران جوار الله و ذمة محمد رسول الله .
وعاد أهل نجران إلى ديارهم ..
و تمر الأيام.. و ينطلق رسول السماء إلى حج بيت الله... و اختارت السماء «غدير خم» في طريق العودة و هبط جبريل :
-يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و ان لم تفعل فما بلغت رسالته .
-والناس؟
-الله يعصمك من الناس .
الرمال تشتعل لهيباً لا يطاق .
و توقف النبي فتوقف معه مئة ألف أو يزيدون، و علامات استفهام ترتسم على الوجوه و توقّف التاريخ يصغي لما يقول آخر الأنبياء :
-ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟
-بلى يا رسول الله .
-من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه... أيها الناس ستردون عليّ الحوض و أنا سائلكم عن الثقلين .
-و ما الثقلان يا نبي الله؟
-كتاب الله و عترتي أهل بيتي .
و مضى التاريخ لا يلو على شيء... و عادت قوافل الحج الأكبر تستأنف رحلة العودة إلى الديار وقد دخل الناس في دين الله أفواجا وهبط جبريل يتلو على الرسول آخر آيات السماء ..
-اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام ديناً .
و شعر النبي ان مهمته في الأرض قد انتهت و أنّ له أن يستريح ولكن ...

القسم 30

كانت فاطمة تقرأ القرآن.. في يدها مصحف.. فجأة سقط المصحف على الأرض... ثم حلّق في السماء يخترق الغيوم.. و يتيه بين النجوم.. و رأّت فاطمة نفسها تطير وراءه.. تريد اللحاق ...
و كان القرآن ينادي :
-هلمي إلي.. هلمي إلي السماء .
و نظرت فاطمة وراءها فرأت الأرض زيتونة مشحونة بالبرق و بالبرق .
هبت فاطمة من نومها... و هواجس الخوف تحاصرها .
قالت لأبيها :
-يا أبتني أني رأيت قرآناً يسقط من يدي .
قال الذي عنده علم الكتاب :
-يا فاطمة.. يوشك أن أُدعى فأجيب.. وقد عرض عليّ جبريل القرآن في هذا العام مرتين .

تجمعت في عينيها الدموع... ضرب الحزن اطنابه في القلب الكسير... دق أوتاد خيامه .
قال الأب ليسري عن ابنته :
-لا تحزني.. أنت أول أهل بيتي لحوفاً بيّ .
أشرفت شمسي الأمل.. وجدت لها طريقاً خلال الغيوم فعادت البسمة تموج فوق وجه أزهري... وجه يتألق بنور الله، والله نور
السموات والأرض .
و تمر الأيام متوجسة و الأرض تفتقد جبريل .
سقط رسول السماء مريضاً فوق الأرض.. عصفت به الحمى.. عجز الماء عن اطفاؤها... و شعر الرجل السماوي بأن الأفق مشحون
بالمؤامرة وان هناك عيوناً تترق في الظلام تريد الاستحواذ على أمانة.. تهيبت حملها السماوات و الأرض .
هناك في الخفاء و بعيداً عن العيون كان العنكبوت تنسج شبكة مخيفة. و كانت هناك فراشة قادمة... تحلم بالربيع دفعتها ريح
صفراء فهي توشك ان تسقط في بيت هو أهون البيوت .
في الليل و الناس نيام حطم الشيطان أغلاله و ذر قرنيه يريد الفتنة ...
كان الجو مكفهرًا.. و قد ادلهمت السماء.. و سكون مهيب يختم فوق المدينة.. والقلق عاصفة مدمرة تهز القلوب تريد اجتثاث
الطمأنينة منذ بيعة «العقبة» و «بيعة الرضوان»، كانت القلوب خائفة و هي تنطوي على شيء يوشك أن تفقده... السلام... كان
محمد سلاماً في الأرض.. والأرض توشك أن تفقد هذا السلام ...
و رسول الله يغلي بالحمى... وأفواه القرب تريد اطفاء الجمر، حتى اذا هدأت الحمى وانتظمت انفاس النبي أرسل وراء أصحابه
وقد شم في الغضاء رائحة غريبة ..
طفحت الفرحة فوق الوجوه وهي تنظر إلى النبي هادئاً قد فارقت الحمى؛ قال الرسول و هو يريد تمزيق شبك العنكبوت :
-ألم أمركم أن تتفادوا جيش اسامة .
تمتم بعض الصحابة :
-بلى يا رسول الله .
-لم تأخرتم عن أمري؟
قال أبو بكر مبرراً :
-إني خرجت إلى الحرف ثم رجعت لأجدد بك عهداً .
وعلق عمر :
-وأنا لم أخرج.. لا أريد أن أسأل عنك القوافل .
العنكبوت منهمة في مد الخيوط لإصطياد فراشة الربيع و النبي يحاول تمزيقها :
-انفذوا جيش اسامة.. لعن الله من تخلف عن جيش اسامة .
تسارعت أنفاس الرسول وكان قلبه يخفق بشدة و قد عاودته الحمى، و شعر بدوار يعصف برأسه.. حتى غامت الأشياء حوله ..
و بكت النسوة.. و كادت فاطمة أن تموت .
أفاق النبي من غيبوته و قد شعر بالخيوط الواهنة تسدّ الطريق على فراشة الربيع فحاول للمرة الأخيرة :
-أئتوني بدواة و صحيفة لأكتب لكم كتاباً لا تزلوا بعده أبداً .
هب صحابي ينشد الهداية.. ولكن العنكبوت كانت قد سدّت الطريق أمام فراشة النور .
قال عمر أمراً :
-ارجع لقد غلب الوجع رسول الله... انه ليهجر و حسينا كتاب الله .
رمق أبو بكر صاحبه بنظرات ذات معنى .
و قال الذي نهض :
-هل أحضر لك الدواة يا نبي الله؟
قال النبي يحزن :
-أبعد الذي قاله عمر .
واحتجت النسوة من وراء حجاب و كان صوت أم سلمة واضحاً :
-ائتوا رسول الله حاجته .
هتف عمر بعصية :
-اسكتن فانكن صواحب يوسف.. إذا مرض أعينكن و اذا صح أخذتن بعنقه .
نظر النبي إلى أبي حفص و تمتم :
-هن خير منكم .
و بكى أحد الصحابة، و قد شعر بهبوب العاصفة... و تفرق من كان حاضراً.. ولم يبق مع النبي إلا شاباً لا يفارقه مذ أطل على الدنيا
وهاهو اليوم الموعد.. يوم تعود فيه النفس إلى يارثها راضية مرضية ..
اليوم هو يوم الاثنين.. و «صفر» لا يريد الانطواء إلا بعد أن يشهد رحيل السلام ..
كان علي يعتنق الرجل الذي رياه صغيراً و علمه كبيراً وفتح له أبواب الملكوت .. و النبي يشدّ على يد فتى شرى روحه لله و
الرسول.. الله وحده الذي يراقب الأعماق ..
كان علي كالمذهول. و لو بقيه بروحه... الحياة مريرة دون محمد.. و ما أحلى الموت معه أو دونه .
نهضت «فاطمة» تجرجر نفسها بعناء و تبعها السبطان.. فإن للنبي الوصي ساعة من وداع بعد رحلة دامت ثلاثة و عشرين سنة ..
لحطات كالفرون المتماذية و النبي بنوء بنفسه، يصغي إلى ملائكة الرحمن، ولكن أهل الأرض عن السمع لمحجوبون.. لم يسمعوا
شيئاً سوى كلمات هي آخر ما حفظته الأرض من رسول السماء :
-بل الرفيق الأعلى ..
وانطلق «محمد» نحو الله يعبر السماوات مخلّفاً جسده بين ذراعي علي.. وقد هبت العاصفة، و حطم الشيطان أغلاله فراح يوقظ
الأوتان العربية .

القسم 31

المدينة هانجة وقد زلزلت الأرض زلزالها.. فالقلب الذي كان ينض حباً للفقراء والمحرومين قد توقف إلى الأبد... وانقطع ذلك الحب
الممدود الذي يربط السماء بالأرض.. واختفت ظلال جبريل وبدا المسجد خاوياً على عروشته ..
العيون تكي و الحناجر تشرق بالعبرات. لبت السماء اطبقت على الأرض وليت الجبال تدكدت على السهل .
هل رأيت قطيعاً من الماشية سقط راعيها فراعها خوف من ذئب قد يشد عليها فهي تجرى في كل اتجاه تبحث عن يهبها
الطمأنينة حتى لو كان وهماً .
و هل رأيت غريقاً في بحر هائج يتشبث بكل شيء غير الماء حتى لو كان قشة لا شأن لها ..
هكذا كانت المدينة... ذلك النهار العاصف كان أبو حفص زانع
العينين يبحث عن صاحبه يتربح حضوره بين اللحظة و الأخرى... همس في نفسه حانقاً :
-ما كان على أبي عائشة أن يذهب إلى «السنخ» في هذه الأيام ...

كان منظر «عمر» مخيفاً بطوله الفارع و عينيه المتوقدتين وزادت نظراته الغاضبة هيئته في النفوس فتفتحوا عن طريقه و هو يدخل منزل النبي .

كشفت عمر عن وجه النبي و تتم بصرامة :

-لقد اغمى على رسول الله .

قال أحد الحاضرين مستنكراً :

-قد مات رسول الله .

أجاب عمر بغضب :

كذبت ما مات ولقد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران .

غادر عمر المنزل هائجاً ووقف وسط الجماهير و هو يلوح بيديه :

-ان رجلاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات وأنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال و أرجلهم ممن أرجف بموته .

وجد القطيع المميز شبيحاً لراع فالتفت حوله تلتمس الأمن؛

ووجد الغرقى قشيشاً فراحوا يتشبهون .

و عندما يفقد الإنسان الأمل فإنه قد يعمد إلى وهم يهبه شكل الحقيقد في لحظد يأس مريرة ...

تخلق الناس حول رجل يرف و برعد و يهدد من يقول بموت الرسول... و ما أجمل ما يقوله «عمر» ان محمد لم يموت و لا يموت

حتى يظهر دينه على الدين كله.. لله درك بابن الخطاب .

كان المغيرة ينظر إلى أبي حفص يفكر في لغز استعصى حله عليه.. ارتسمت علامة استفهام كبيرة ما تزال حتى اليوم و ربما إلى يوم الدين .

من بعيد لاح أبو عائشة يحث الخطى.. ولعل «المغيرة» قد لاحظ شيئاً.. فقد بدا الرجل الذي كان يهدد و يتوعد من حوله بالويل

والثبور يخفف من حدته.. و انحسرت تلك الزوبعة المدمرة ليحل مكانها سكون رهيب .

هتف أبوبكر من بعيد :

-على رسلك ايها الحالف .

ثم التفت إلى الأمة المدهوشة :

-ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات و من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت.. و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً .

تنفس أبوحفص الصعداء و هو يرنو إلى صاحبه الذي حضر في الوقت المناسب ..

كان المغيرة ما يزال يرفق بأحفص و هو يكاد يصعق.. لقد انتهت الثورة. فجأة هدأت العاصفة. استسلمت عند قدمي أبي عائشة .

وقف عمر إلى جانب صاحبه وانضم اليهما رجل ثالث هو «ابن الجراح» و تبادل الثلاثة نظرات هى أبجدية كاملة.. ربما كانوا يفكرون للمستقبل ليومين أو ثلاثة أو ربما للتاريخ كله .

ان كل التحولات الاجتماعية الكبرى انما تولد في الضمائر قبل أن تجد طريقها إلى الواقع.. أنّها موجودة في دائرة القوة حتى يأتي من يخرجها إلى دائرة الفعل.. و كان في ضمائر جلة المهاجرين و قريش قاطبة ألا تجتمع النبوة و الخلافة في بني هاشم... و قد قرأ رجال ما يجول في الخواطر ليخرجوا ما استتر في الضمائر و عجز النبي عن هزيمته يوم هزم الأوثان العربية .

النبي الذي جاب الصحراء ينشر فيها النور و الحياة هو الآن جثة هامدة.. و توقف القلب الذي ينبض بالحب.. القلب الذي سحر كل القلوب فتألفت. و مذ توقف هذا القلب انفرط عقد القلوب جميعاً كما

النهار الكهربائي إذا انقطع انطقات المصابيح وعاد الظلام فلا تسمع سوى أصوات بومة تصيح :

-هوو.. هوو.. هوو.. تبشر بزمن الخرائب و الاطلاق. يا له من صباح مظلم كئيب.. احترقت شمسها وانحدر ضياؤه.. عيون غارقة في بحيرات الدمع و عيون تترصد بحذر بيتاً فيه جسد مسجى و قلوب كسيرة و رياحين ذابلة و شموع منطفئة ..

و هناك و بعيداً عن كل العيون اجتمع رجال من «الأوس» رجال من «الخزرج» يتشاورون في رجل «مزمّل» و قد أوجسوا خيفة من غدر قريش .

«السقيفة» تكتظ برجال الرسول و أزروه يوم كان شريديشا، و قهروا به الذين شرّده عن دياره بغير حقّ .

طافت خيالات «بعث» في فضاء السقيفة، نشرت ظلالها سوداء كالحة.. نكأت جروحها ضمدها رسول السماء فاندملت.. إلى حين .

قال سعد و كان دنفا :

-يا معشر الأنصار ان لكم سابقة في الدين و فضيلة ليست لقبيلة من العرب.. فلا تدعوهم بغيركم على أمركم .

قال زيد مؤيداً :

-وقفت في الرأي و أصبت في القول. ولن تعدو ما أمرت نوليك

هذا الأمر، فأنت لنا مقنع و لصالح المؤمنين رضى .

قال «ابن حضير» :

-ولكنهم عشيرة النبي و هم أولى به من غيرهم .

أجاب ابن المنذر مستدركاً :

-إذن نقول لهم منا أمير و منكم أمير .

هتف سعد غاضباً :

-هذا أول الوهن .

و تتمم ابن الأرقم متأسفاً بصوت لم يسمعه أحد :

-لك الله يا علي.. ان الملائكة يأمرون بك لي ...

وانسل من بين الجمع شبحان راحا يحثان الخطى و قد انبعثت في الأعماق اصداة معركة قديمة في يوم من أيام العرب .

قال عويم يحث صاحبه :

-اسرع يا معن قبل أن تعقد لسعد .

القسم 32

بدا «أبو عائشة» متردداً يقدم و يحجم.. كرجل تاهت به السبل.. يزن الأمور بوقار تاجر قديم، قال في نفسه: ليقنع بنوهاشم بالنبوة وليدعوا الخلافة لبطون قريش ولكن ماذا يفعل و وصايا النبي في الصدور وفي القلوب .

أبوبكر غارق في تأملاته.. وكان صاحبه يختلس اليه النظرات.. نظرات مضممة قوية ثابتة لا يعرفها سوى «الجراح».. وبدا أبوحفص في تلك اللحظات قوياً كالعاصفة جباراً كالسيل وقد اشتعلت في أعماقه كلمات قالها يهودى ذات يوم :

-أنت ملك العرب .

كان عمر غارقاً في هواجسه عندما وصل «عويم» و «معن» .

هتف «أبوحفص» :

-ماذا؟! !!

لم يكن هناك وقت.. فالفرص تمر مر السحاب وانطلق ثلاثة رجال.. لو رأيتهم من بعيد لأدركت أية طامة وقعت لهم أو عليهم... كانوا يسرعون الخطى.. والرسول ما يزال مسجى.. في فراشة... يتحدث بلغة الصمت.. لغة عجيبة لاتفهمها سوى أذن واعية... رجال من الأوس ورجال من الخزرج يأتمرون قد أوجسوا خيفة.. ورجال من قريش يحثون الخطى إلى سقيفة لبي ساعده و النبي يدعوهم بلغة الصمت..

«الغنائم» تلوح من بعيد شبيهة بسيل لها اللعاب و قد ترك «الرماة» مواقعهم.. في «عينين» و الرسول يدعوهم . اقتحم الثلاثة «السقيفة»، وبدت الوجوه مخطوفة اللون شاحبة قد عراها اصفرار. لقد انتقض الغزل و هو في أيديهم.. كان أبو حفص على و شك أن يثور لولا أبو بكر :

مهلاً يا عمر: الرفق هنا أبلغ .
و توجه أبو بكر إلى الأوس و الخزرج بكلمات هادئة :

-يا معشر الأنصار من ينكر فضلكم في الدين و سابقتكم العظيمة في الإسلام؟.. و الله رضىكم لدينه و رسوله أنصاراً و انتخبكم محلاً لهجرته و فيكم جل أزواجه و أصحابه ..
ثم أردف و هو يرمي سهماً في الهدف .
نحن الأمراء و أنتم الوزراء .
اعترض «الحياب» و قد أخفق في إخفاء وهنه :

-بل منا أمير و منكم أمير .
انتفض عمر ليشدد الهجوم :

-هيهات لا يجتمع إثنان في قرن.. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم و نبئها من غيركم ولكن العرب لاتمتنع ان تؤلي أمرها من كانت النبوة فيهم و ولي أمورهم منهم ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة و البرهان المبين ..
وأردف و قد أخذ حماس المنتصر :

-من ذا بنازعنا سلطان محمد و امارته و نحن أولياؤه و عشيرته الآ مبطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة .
رد الحياب بغضب :

-املكوا أمركم يا معشر الأنصار و لا تسمعوا مقالة هذا فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر.. فان أبوا فاجلوهم عن البلاد.. إنا أحق بالأمر منهم، بأسياقنا دان العرب لهذا الدين ..
وأخذته فورة حماس فراح يطلق التهديدات حمماً :

-أنا شبل في عريضة الأسد... و الله لا يرد على ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف .
انبرى عمر لامتصاص العاصفة بمرونة متكلفه :

-اذن يقتلك الله .
-بل إياك يقتل .

و نهض رجل من الخزرج و قد رفع راية بيضاء :

-إنا أول من نصر الله و رسوله و جاهدنا المشركين لانتبغي من الدنيا عرضا... ألا و ان محمداً من قريش و قومه أولى به وأحقّ..
فأتقوا الله يا معشر الأنصار و لا تخالفوهم.. و لا تنازعوهم .
تنفس عمر بارتياح و هو يراقب تهاوي القلاع ..
هتف الحياب مخذولاً :

-حسدت ابن عمك !!
-لا والله.. ولكن كرهت ان أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم .
و انبرى أبو بكر لاقتطاف أولى الثمار. أشار إلى عمر و أبي عبيدة و قال :

-قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فايهما شئتم فبايعوا .
و بطريقة لم تبد عفوية هب عمر مستنكراً :

-معاذ الله.. أنت أفضل المهاجرين.. ابسط يدك .
بسط «أبو بكر» يده و قد سقطت التفاحة في قبضته؛ و نهض رجل من الخزرج فبايع.. و رجل من الأوس.. و تهاوت القلاع و الحصون ..
وتمت أول «فلتة» في تاريخ الإسلام .
بدا «الحياب» متشنجاً كمن أصابه مس من الجنون فالتفت إليه أبو بكر مدارياً :

-أتخاف مني يا حياب؟
-ليس منك ولكن ممن يجيء بعدك .
-إذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك و إلى أصحابك ليس لنا عليكم طاعة .
-هيهات يا أبابكر إذا ذهبت أنا و أنت جاءنا من بعدك من يسومنا الضيم .
و قال أبو عبيدة بلين :

-يا معشر الأنصار انتم أولي فضل ولكن ليس فيكم مثل أبي بكر و عمر و على .
أجاب زيد و قد هزه اسم على :

-إنا لا نكر فضل من ذكرت و ان منّا سيّد الأنصار سعد بن عبادة و إمام العلماء سعد بن معاذ و ذوالشهادتين خزيمه... و ان بين من ذكرت من قريش لو طلب الخلافة لا ينازعه أحد .
-من؟ !!
-علي بن أبي طالب... والله ما اجتمع الأنصار في السقيفة إلا بعد شمو راتحة غدر دبر بليل .

القسم 33

انطوى يوم الاثنين و قد ألقى الحزن كلاكه فوق الأرض كغراب اسطوري. فاطمة تنوء بنفسها و قد اسندت رأسها إلى صدر لم يعد النسيم يزوره .
كانت تصغي إلى صمت الأنبياء وللمصمت حديث تسمعه القلوب و تصغي إليه العقول، العينان اللتان كانتا نافذتي نور قد اسدلنا جفونهما واليدان اللتان كانتا مهدياً هما الآن مسيلتان. الروح التي كانت تصنع التاريخ و الإنسان قد رحلت بعيداً. غادرت هذا الكوكب الزاخر بالويلات .
لقد حلت لحظة الفراق، و تخفف الإنسان السماوي من ثوبه الأرضي ليرحل إلى عوالم حافلة بالنور و قد سمع أهل الأرض كلمات النبي، كان ينظر إلى السماوات و يهتف :

-بل الرفيق الأعلى .
أيها الصامت.. صمتك أبلغ من كل أجديات الدنيا و سكوتك المدوي صرخة حقّ في عالم الأباطيل. و قد زلزلت الأرض زلزالها، انهار عمود خيمة كانت تعصف بها الريح.. و ترمز الكساء اليماني، و كان يدثر نبياً هو خاتم الأنبياء و رجلاً يشبه هارون في كل شيء إلا النبوة، وامرأة هي سيدة بنات حواء و سبطين هما آخر الأسباط في التاريخ .

جثا على أمام جسد كانت روحه العظيمة تضيء الجزيرة و يقايا نور في الجبين البارد تشبه شمساً جنحت للمغيب.. وهناك خلف جدران المنزل الذي جثم عليه جرن سرمدي كانت ترتفع ضجة رجال.. كريح صفراء كانت تقترب من المسجد حيث لا يفصله عن المنزل سوى جدار يكاد أن ينهد .

و خف رجل هاشمي يحمل اناء السقيفة ..
ستنهب الريح عاصفة مدمرة.. لاتبقى و لا تذر. تساءل علي :

-ما قالت الأنصار؟

-قالت منّا أمير و منكم أمير .

-فهلاً احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم و يتجاوز عن مسيئهم .

و ما في هذا من الحجة عليهم؟

-لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم، سكت هنيهة و سأل :

-فماذا قالت قريش؟

-قالت: انا شجرة محمد .

تتم على بأسى :

-احتجوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة .

وقف هارون حائراً يتأمل رمال سيناء.. يترقب عودة أخيه.. و كان موسى يمم وجهه شطر الجبل ..

-ما أعجلك عن قومك يا موسى؟

-هم أولاء علي أترى وعجلت اليك رب لترضى .

-فإنا قد قتنا قومك من بعدك و أضلهم السامري .

وعاد موسى غضبان أسفاً يحمل معه ألواح السماء .

و كان هارون يقاوم العاصفة و كان العجل يخور وسط العاكفين. قال هارون مشفقاً :

-إنما فتنتم به و إن ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا أمري .

-لن نبرح عليه عاكفين حتى يعود الينا موسى .

و لما عاد موسى ألقى الألواح و قال بغضب :

-يئسما خلفتموني من بعدى .

و قال هارون بحزن :

-إن القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني .

ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح و تتمم :

-إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم و ذلة في الحياة الدنيا. ونظر موسى إلى السماء و قال متضرعاً :

-رب اغفر لي و لأخي و لأخينا في رحمتك و انت أرحم الراحمين .

و التفت موسى إلى السامري :

-ما خطبك يا سامري؟

-بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها و كذلك سوّلت لي نفسي .

قال موسى و هو يبذره في قلب التيه :

-إذهب فإن لك في الحياة ان تقول لامساس و ان لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسنفنه

في اليم نسفاً .

وضاع السامري في التيه.. بين تموجات الصحراء.. وعواء الذئاب. كان صوته يتبدد في المدى يبحث عن وطن.. والوطن لا يقبل شجراً

القسم 34

جلست حفصة قرب عائشة كما تجلس الجارية عند سيدتها أو المريد عند استاذة يتعلم منه أو يراقب حركاته و يبكناته ولعلّ المداقة التي تربط بين الأيوين قد بخرت تماماً ما تضره المرأة لضرتها وأزاحت بعيداً ذلك التنافس المرير في التفوق وهاهي الأيام تمر لنوح بينهما، تضاعفت خلوات عمر أبلي بكر وزادت الأواصر بين عائشة و حفصة ...

و قد جلست المرأتان فيما يشبه الاحتفال بالنصر... أو التفكير لجولة قادمة ...

كانت عائشة تغالب شعوراً بالنشفي والانتقام وها هو أبوها يحقق أول انتصار على منافسه .

منذ سنوات و أبوبكر يفعل المستحيل ليبقى في الصدارة... فهو صاحب النبي في الغار و هو الملازم له في العريش... هو و عليّ فرسا

رهان ولكن ماذا يفعل و عليّ السبّاق في كل شيء.. ماذا تذكر عائشة.. «خير» «ذات السلاسل».. سورة براءة ...

ليشد ما تمفت علياً... انها لا تستطيع أن تنسى كلماته و هو ينصح النبي بطلاقها يوم «الافك».. وفاطمة التي تغار منها و من

أمها.. خديجة.. ولكن ما تبغي وهاهو أبوها يمسك بالزعامة والخلافة .

أما عليّ فهو جليس داره وحيد ليس معه من يؤازره أحد... و فاطمة التي لا تفتأ تبكي أبها ليل نهار .

عائشة هادئة الليال تعم بالمجد.. لقد كانت زوجة أعظم رجل في الجزيرة وهاهي اليوم بنت رجل يباهه الجميع ..

كانت عائشة مستغرقة في خيالات الماضي و المستقبل عندما دخل أبوها و كان معه عمر ..

بدا أبوبكر مهموماً... لقد جاء أبوسفیان و هو يخشى صولته .

قال عمر و قد أدرك ما يجول في خاطره :

-الأمر بسيط يا خليفة رسول الله.. أنا أعرفه.. اترك ما في يده من الزكوات ..اننا نحتاج إلى بني أمية للوقوف بوجه بني هاشم..

نشغل بعضهم ببعض فيتصفولك الأمور .

-ارحتني يا عمر من هم وبقيت هموم .

-أتعنى علياً و أصحابه... و الله لأجعلنهم يبايعون.. طائعين أو

كارهين... ولسوف أمضي اليهم بنفسى فان تغلّوا أحرقت عليهم البيت .

-إن فيه فاطمة يا عمر .

و إن .

تداعت الذكريات في خيال أبي بكر. تذكر يوم خطب فاطمة فردّه الرسول. أنّه لن يغفر لها ذلك... كما لن يغفر لها ما سببته من آلام

لإبنته. كانت عائشة لا تطيق رؤيتها و لا رؤية زوجها.. هو أيضاً كان لايرتاح لفاطمة و كان يشعر بالحسرة لما تقاسيه ابنته .

قال عمر و هو يرمق صاحبه بنظرة ذات معنى :

-يا له من حديث أصبت به مقتلأ... أنا أيضاً أذكر ان النبي قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة .»

ابتسم أبوبكر... و كأنه يقول و ما في وسعي أن أفعل غير ذلك.. امامنا جولات و جولات.. و فاطمة ما تزال تقارم .. قال أبوبكر متوجساً :

-أنا أخشى فاطمة.. أنها ثائرة ولن تسكت.. و كيف تسكت و هي بنت محمد.. و زوج عليّ .

-لا تخش شيئاً يا صاحبي سينتهي كل شيء.. ما هي إلا امرأة.. و ليس معها أحد .

قال أبوبكر و قد استيقظت في أعماقه بقايا ضمير :

-ماذا لو نسلّمها «فدكاً» و نرتاح من كل هذا العناء .

-ماذا تقول يا صاحبي اذا أعطيتها فدكاً اليوم فستأتي غدا لتطالب بالخلافة إلى بعلها.. و أنت تعرف ان فدكاً لديها ليست فاكهة أو نخيل و لا أرض أنها الخلافة.. لا لا.. لا تفعل ذلك أبداً .

-ألا تخشى غضبها يا بأحفص.. غضبها يعني غضب الله و رسوله.. الجميع يعرف ذلك .

-و هذه أيضاً ستمر كما تمر العاصفة.. سوف نزرها ذات يوم فتصفح عنا و ينتهي كل شيء.. أنك لتصوم و تصلي و تحجّ و تجاهد فلا تقلق .

-اتمنى أن يكون ذلك .

كانت عائشة تصغي بصمت إلى حديث أبيها تترك ما يموج في أعماقه من رقة تكاد تنقض كل صلابته لولا صاحبه الذي لا يعرف غير الاندفاع كالزوبعة... و لولاه ما وقف أبوها كل هذه المواقف... وعائشة تترك جيداً ان عمر يحلب لأبيها ليأخذ شطراً منه غداً . على هذا تعاهداً و معهما «الجراح .»

عائشة لا تتراح لتردد أبيها.. أنها تريد منه أن يكون قوياً هذه المرّة... و قد غاب «محمد» فليندفع ليهزم «عليّاً» أمام عيني «فاطمة»، لشد ما يسعدّها أن ترى فاطمة كسيرة مغلوبة تندب المجد الذي ولى و العز الذي مضى .

-لا لا يا عائشة لا تكوني قاسية إلى هذا الحد ...

أرجوك إذا مررت بشجرة محطمة فلا تدوسي ثمارها.. أو حمامة مهبضة الجناح فلا تستلي السكين لتذبحها.. أليس هناك مكان للحب.. لله؟

-أتريدني اشفق على فاطمة.. فاطمة التي استحوت على قلب زوجي.. لا لا لن أغفر لها ذلك.. و علي الذي ود طلاقى.. كلاً لن أغفر لهما أبداً .

تلاشى الدوي و خفت نداءات الإنسان.. وانتصر النمر المتوتّب في الأعماق ليطلّ من عينين يكاد بريقهما ينفذ في الضلوع .

القسم 35

فاطمة جزيئة.. وحيدة في هذه الدنيا العادرة.. غيّب التراب وجهاً كان يضيء دنياها و توقف قلب كان يملأ حياتها أملاً.... رحلت أمها وهي بعد صبية.. وهاهي تفقد أباه وهي في عمر الربيع ..

فقدت الأشياء شفافيتها و بدت عارية مفرقة. كانت تنظر إلى الجزيرة فترها خضراء.. خضراء. تنظر بعيني محمد فتري البراعم تتفتح و الرياحين تفوح بالعطر.. والسماة تزخر بأحنية الملائكة مثنى وثلاث و رباع و كلمات جبريل تملأ الفضاء. و لما أغمض الأب عينيه انطفت كل الشموع.. انكفات فوق صحون الحنّاء.. ذبلت الرياحين و غادر الربيع الجزيرة... واستيقظت الاصنام.. فتحت عيونها الحجرية.. و انبعث حوار «عجل» في «فدك .»

العاصفة تهب عنيفة تدمر كل شيء.. و لو مرت على النجوم لأطافتها أو على شجرة زيتون لا اجتنتها من فوق الأرض... و فاطمة وحيدة.. ليس معها أحد سوى رجلها و قد أغمد «ذا الفقار» بعد ان وضعت الحرب أوزارها.. و سيد الرجال يأبى أن تكون له في الفتنة سيف.. سلاحه الصبر؛ و الصبر سلاح الأنبياء .

ليس في منزل فاطمة سوى صبيين ينتظران عودة جدهما.. ليس في منزل فاطمة سوى بنت صغيرة غارقة في حزن سرمدي... بنت اسمها «زينب»؛ ليس في منزل فاطمة أحد إلا المستضعفون فدا كقلعة مهجورة تحمل آثاراً لجبريل. ستهب العاصفة إعصاراً فيه نار و قد لاذ الخائفون فتراناً مذعورة في جحورها.. وليس هناك من سلاح إلا الصبر... و الصبر له طعم كالحنظل لا يعرفه إلا المظلومون .

بدا علي ذلك اليوم كأسد جريح.. أسد مثقل بالقيود و السلاسل.. و أصعب ما يواجه الرجل من ضمير أن يرى امرأته مقهورة وحيدة و هو موثق الأيدي... كان علي يدرك ما يدور في الخفاء... شم منذ أمد بعيد رائحة المؤامرة و لم يكن في مقدوره أن يفعل شيئاً... كانت العناكب تحوك شباكه ليل نهار. والسماة تكتظّ بقطع السحب السوداء، والقمر في المحاق ..

هبت العاصفة، وهتف ابن صهاك، و قنفذ ينظر بعينين فيهما بريق شيطاني :

-يا علي اخرج و بايع كما بايع الناس .

لاذ الأسد بالصمت، و رفع ابن صهاك صوته بعصية :

-لتخرجن أو لأحرقن الدار .

هتف رجل مستنكراً :

-إن فيها فاطمة .

أجاب ابن صهاك .

-و إن !

هتفت فاطمة بغضب :

-سرعان ما أغرتم على أهل البيت .

ركل قنفذ الباب بوحشية... وظهرت بنت محمد في قبضتها لواء المقاومة.. ووجهها الأزهر مضمخ بعبير النبوات و كان حسن و حسين ينظران بدهشة إلى رجال كانوا بالأمس يتسممون لهما و قد جاءوا اليوم يكشرون عن أنياب الكذئاب .

-أين أنت يا جده.. هلم لتري ما يفعل أصحابك .

هتفت فاطمة بغضب الأنبياء :

-اخلوا الدار.. و خلوا عن ابن عمي ..

ثم أردفت و هي تستنجد بالسماة :

-لئن لم تخلوا عنه لانشرن شعري و لأصرخن إلى الله .

هتف سلمان وقد رأى العذاب قاب قوسين أو أدنى :

-يا سيدتي! إن الله بعث أبابك رحمة. والتفت إلى عمر :

-خلوا عن علي فقد اقسام الآ يخرج حتى يجمع القرآن .

انسحب الرجال أمام فتاة نحيلة الجسم كخلة متواضعة.. لكنّها عميقة الجذور .

ما تزال راية المقاومة ترفرف فوق منزل فاطمة كطيف من رؤى النبوات .

وقف التاريخ مشدوهاً قبالة منزل صغير يضم فتاة نحيلة القوام .

وقف التاريخ خاشعاً أمام «فاطمة».. أمام فتاة عجيبة لم ير مثلاً صفاً لكنها تنتمي إلى عالم آخر لا يمت إلى عالم التراب بوشيجة .

قيس من نور يكاد ينفذ من أهاب جسد نحيل لكأن الملاك يوم ولدت تصرّح إلى ربّه :

-يا رب اجعلها ثابتة كالجبل، مباركة كالنخيل، طاهرة كقطرات الندى، سيدة كحورية .

وقف التاريخ مذهولاً أمام فاطمة.. غيمة بيضاء تختزن الروع... فهذه الفتاة التي تقف في محرابها تتبتل إلى السماء حتى تكاد تفتت التراب لتصبح كوكباً درياً.. تتسرب من بين الطين عائدة إلى عالم النور .
وقف التاريخ خاشعاً امام فتاة تقضى جل وقتها تتأمل ملكوت السماء.. ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه... فتاة تنطوي ضلوعها على قلب تضع فيه الصحارى .
وقف التاريخ امام سيده عظمة هبت بوجه العاصفة؛ ولتكن «فدك» ارضا للصرع .

القسم 36

ما أصغر فدكاً فوق الأرض... وفي الجغرافيا. و ما أوسعها في خارطة التاريخ .
هبي السامري ليجتو أمام «العجل» وفتحت الأوثان العربية عيوناً حجرية تحقق ببلاهة... وبرقت عينا «الاسخريوطي» بالغدر و هو يدل على ابن مريم... و هم بنو اسرائيل بهارون، وفرت الفراشات إلى مخابئها و قد عوت ريح الزمهرير كذئاب مجنونة .
نهضت فاطمة بوجه العاصفة تقول لا :
-لا تقتلوا يوسف.. و لا تلقوه في غيايت الحب .
-لا تغدروا بابن العذراء.. لا تعبدوا العجل من دون الرحمن.. لا تقتلوا هارون .
-دعوا الفراشات تسبح في غمرة النور.. لا تطفئوا الشموع.. لا تتقلوا الأرض بالآثام.. دعوا هابيل يرعى ماشيته بسلام .
وفقت فاطمة تنظر إلى الأفق البعيد المدلهم بالخطوب و الحوادث و راحت تسرح الشموع في مهب العواصف علها تضيء الصحراء والتاريخ .

معركة وشيكة ستندلع.. تدمر كل شيء.. معركة عجيبة اسلحتها الصبر.. الصمت الرفض... كان على علي أن يرمي «ذالفقار» جانياً.. أن يصرخ بالصمت.. الصمت المدوي و كان على فاطمة أن تتكلم بعد أن طوت الماضي متبتلة في المحراب .
نهضت فاطمة.. غادرت محراب الصمت لتقول كلمتها في الذين يسرقون «فدك» في غمرة الليل حتى لا يسرقوا التاريخ و المستقبل في وضح النهار ..
جاءت فاطمة تطالب بالميراث و كانت جذوع «فدك» سلاحها الوحيد :

-اعطني ميراثي من أبي رسول الله .
قال أبو بكر :

-سمعت أباك يقول: نحن معاصر الأنبياء لانورث .

-كيف و قد ورث سليمان داود.. وقال زكريا: يرثني ويرث من آل يعقوب؟!
-أنا سمعت رسول الله يقول نحن الأنبياء لا نورث وهاهي

عائشة وحفصة تشهدان على ذلك .

-سبحان الله ما كان أبي عن كتاب الله صادفًا.. و لا لأحكامه مخالفاً ..
اشتعلت ثورة في قلب ابن فاطمة و كان صبياً جذب رداء رجل ينازع أمه الميراث .
هتف السبط :

-انزل عن منبر أبي و اذهب إلى منبر أبيك .

سأل الرجل بدهاء :

-من علمك أن تقول هذا؟

لاذ الصبي بالصمت .

فعاد الرجل يكرّر مقالة ما أنزل الله بها من سلطان .

قالت فاطمة و هي تضم ريحانة الرسول و تحدف في الذين اغتصبوا ميراث الأنبياء :

-كلّ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

غادرت فاطمة المكان.. و تثاررت أسئلة.. علامات استفهام، فتمتم الخليفة بأسى أمام صاحبه :

-أما كان الأخرى أن نهبها فدكاً... أنا أخشى ابنة محمد .

أجاب أبو حفص مشجعاً :

-لا تخف يا صاحبي... غيرة و تنجلي و ما هي إلا جولة و ينتهي كل شيء.. و كأن شيئاً لم يكن... و ربت على كتفه و قد عرف

كيف يتغلغل إلى قلبه :

-أقم الصلاة... و أت الزكاة... ان الحسنات يذهبن السيئات.. و ما يفعل ذنب واحد في حسنات كثيرة .

أضاعت الايتسامة وجهه، فقال :

-كربة فرحتها يا عمر ..

هتف الخليفة و قد شجذ العزم كلمات تدعو بالويل والثبور ...

-ألا لو شئت أن أقول لقلت، و لو تكلمت ليحت و اني ساكت ما تركت... يستعينون بالصيبة و يستنهضون النساء.. و اني لستُ

كاشفاً قناعاً و لا باسطاً ذراعاً و لا لساناً، إلا من استحق ذلك .

استنكرت أم سلمة و كانت امرأة على خير :

-أمثل هذا يقال لفاطمة!! وهي الحوراء و عديلة مريم.. ربيت في أحضان الأنبياء و تداولتها أيدي الملائكة.. أتزعم ان رسول الله

حرم عليها ميراثه؟! !

عادت فاطمة إلى منزلها.. و قد جثم الحزن على بيوت المدينة

كطائر مهيبض الجناح .

أوت فاطمة إلى المحراب تستمد من السماء الروح.. الحياة.. النور؛ تريد أن تتخفف من عناصر الأرض.. الأرض المثقلة بالدماء

الأدمية... تريد أن تنتمي إلى عالم آخر لانكد فيه و لا عناء... تنشد بيتاً من قصب لا تعب فيه و لا نصب.. ما تزال تبحث عن أمها..

أوت فاطمة تلك اللبيلة إلى المحراب، وقالت :

-ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة و نجني .

هومت عيناها.. فانبتق شلال من نور النبوات .

هتفت بشوق :

-يا أبتاه، يا رسول الله انقطع عينا السماء .

خفقت أجنحة الملائكة.. رفررت كفراشات من نور سماوي.. ولجت فاطمة الملكوت راحت تخطر في عوالم النور.. الملائكة صفوف

والحدائق غناء... و الأنهار تجري متدفقة تدفق الحياة.. وحوريات يخرطن بين الأشجار الخالدة .

قالت احداهن لفاطمة :

-مرحباً بحورية الأرض ...

فاطمة تخطر في عالم شفاف.. عالم ملوّن. أشارت فاطمة إلى نهر يطرد.. تدافع أواجه البيضاء.. تدور حول قصر تحفه الأشجار

ويغمره النور من كل مكان. قالت حورية :

-هذا الفردوس.. وهنا يسكن سيد ولد آدم محمد .

-أين أبي؟

انبثق شلال من نور محمد... كان يرتدي ثياباً من سندس بلون الربيع .. ركضت فاطمة.. ضاعت في صدره الريح.. شعرت بأنها تعود إلى أحضان أمها.. إلى عالم تنتمي إليه .
-انظري إلى ما أعد الله لك.. لقد انتهت الأملك و أن لك أن تستريحي.. انظري إلى زهدك كيف أصبح حنة عرضها كعرض السماوات و إلى فراش الليف فكيف صار سريراً من حرير، و إلى جوعك و عريك كيف أضحي فاكهة و قطوفاً دانية واستبرق وحريراً.. وانظري إلى دموعك اضحت أنهاراً من لبن.. ومن غسل تجري، و إلى حجرتك أمست قصراً... و إلى ظلمات الأرض صارت شلالات من نور يتدفق ..
انتهت فاطمة.. عادت إلى الأرض لتودّعها.. لتقول كلمتها قبل الرحيل الأبدى... عادت لتبني بيت الأحزان... تبكي الأرض المثقلة بالهم... بالدموع و بالألم .

القسم 37

لقت فاطمة خمارها، واشتملت بردائها و الأزار و نهضت بأمر الله .
ما بين دار فاطمة و المسجد خطوات، قطعتها ثابتة الخطى لأنها محمد و عاد يصح مسار الإنسان من جديد.. يقوده إلى منابع النور والخلود .
جاءت فاطمة تحفها نسوة و بنات دخلت المسجد.. لتقول كلمتها للأمة و التاريخ .
و أنت من وراء حجاب... أنه هي آفة هابيل
قبل ان يموت... فيها عذابات «أسية»... و حزن «مريم .
ولوعة «يوكايد ...»
بكى المهاجرون و بكى الأنصار و اهتز قلب كالصخر ولان .
قالت بنت آخر الأنبياء وقرينة مؤسس البلاغة في العرب :
-الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم
من عموم نعم ابتدأها، وسيبغ آلاء أسداها و تمام ممن أولاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى من الجزء أمدها و تفاوت عن الإدراك أبدها. وأشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الاخلاص تأويلها، و ضمن القلوب موصولها، و أثار في التفكير معقولها، الممتنع عن الأَبصار رؤيته، و من الألسن صفته و من الأوهام كفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، و أنشأها بلا احتذاء أمتلة امتلتها، كونها بقدرته و ذراها بمشيئته .
وأشهد ان أبي محمد عبده و رسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباها، واصطفاه قبل أن ابتعته، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، و بستر الأهاويل مصونة، و بنهاية العدم مقرونة .
ابتعته الله اتماماً لأمره و عزيمته على إمضاء حكمه و انفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقا في أديانها عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأثار الله بأبي محمد ظلمتها و كشف عن القلوب بهمها و جلى عن الأَبصار غمها... ثم قبضه الله اليه قبض رافة و اختيار و رغبة و إيتار .
محمد من تبع هذه الدار في راحة، قد خصّ بالملائكة الأبرار، و رضوان الربّ الغفار، و مجاورة الملك الجبار، صلّى الله على أبي وأمه و خيرته من الخلق و صفيه والسلام عليه و رحمة الله و بركاته .
وقف التاريخ مذهولاً لكلمات سماوية لكانها جورية هبطت الأرض تحمل لها قبساً من نجوم السماء .
سكنت فاطمة هنيئة واستجمعت قوتها لتهز النخلة عليها تساقط رطباً جنياً :
أيها الناس، اعلموا أبي فاطمة و أبي محمد أقول عوداً و بدواً، و لا أقول ما أقول غلطاً، و لا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه و تعرفوه تجدوه أبي من دون نساءكم، و أخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارياً تهجم، أخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة و الموعدة الحسنة يجف الأضنام و ينكث الهام، حتى انهزم الجمع و ولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه و نطق زعيم الدين، و خرست شفاشق الشياطين .
و كنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، و نهزة الطامع، و قبسة العجلان، موطي الأقدام، تشربون الطرق، و تفتاتون القد، أدية خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنذركم الله تبارك و تعالى بمحمد صلى الله عليه و آله بعد اللتيا والتي .
ودوت صرختها توظف الضمير الذي أخذ إلى الأرض :
أيها المسلمون: أعلب على إرثي! يا ابن أبي فحافة، أفي كتاب الله ترث أباك و لا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرباً، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول:(وورث سليمان داوود .)
و قال في ما اقتص من خير يحيى بن زكريا إذ قال: (فهي لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب .)
و قال: (و أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .)
و قال: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين .)
و قال: (إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين .)
وزعمتم أن لا حظوة لي و لا إرث من أبي و لا رحم بيننا، أفخصكم الله بأية أخرج أبي منها؟! أم هل تقولون: إننا أهل ملتين لا يتوارثان أولست أنا و أبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن و عمومه من أبي و ابن عمي .
فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعلم الحكم الله، والزعيم محمد، و الموعد القيامة، و عند الساعة يخسر المبطلون .
و لا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نأ مستقر، و سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم .
لقد مات الضمير... دفنه رهط من المدينة في أرض فدك، فراحت البتول تحذرهم أيام الله :
فدونكموها فاحتقبيوها، دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الجبار، و شنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع علي الأفتدة، فيعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعملوا إننا عاملون، وانتظروا إننا منتظرون .
غادرت الزهراء المسجد وقد زلزلت الأرض زلزالها و صرخ رجل غصب ميراث الأنبياء :
-اقبلوني بيعتي ...

و يظن الرجال الى حيث كيشفت فاطمة أفاق المستقبل فإذا السحب الحمراء مخزونة بالبرعود و الأرض ملغومة بالزلازل و أنهار من دم، و جماجم وضحايا.. وقر الإنسان..لقى أمانة تهيبت السماوات والأرض عن حملها و حملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً .

القسم 38

كما تذوي الشموع في قلب الظلمات... كما تذوب و تسيل دموع التوهج.. كانت «فاطمة» تذوي.. قوامها يزداد نحولاً ...

قررت فاطمة الصمت و إن تصوم كما صامت مريم من قبل... و أدرك عليّ أن الرحيل و شيك و ان «البيت» الذي بناه من جريد النخل «بالقيع» سيكون ملجأ لفاطمة... بيتاً للأحزان و الألام... سيشهد ذلك البيت انطفاء الشموع.. رحيل النجوم... و مصرع شمس أضاعت حياته مدت بالدفء.. النور.. الأمل .

سكنت فاطمة.. والذين اشتكوا من بكاؤها لم يعودوا يسمعون انيناً ينبعث من أعماق قلب كسير. لم يعد أحد يسمع نشيجها إلا الذين يمرّون ب«البقيع»..

غابت فاطمة كما تغيب النجوم خلف السحب الدكنا. غابت فاطمة كفراشة تبحث عن الشمس... عن ربيع مضى تطارده رياح شتائية .

غابت فاطمة.. لم يعد أحد يسمع بها.. انها تذوي وحيدة في بيت من جريد النخيل غادرته الحياة.. الملائكة لا تريد حياة الأرض، والجوريات لا تعيش في عالم التراب.. والذين اكتشفوا السماء لن يطيقوا الانتظار ...

و عندما يدرك الأنبياء ان مواعظهم لاتجد أذاناً واعية سيتحدثون بلغة الصمت ...

في بيت الأحزان كانت فاطمة تذوب كشمعة متوهجة تحرق نفسها لتبعث النور والدفء من حولها... فاطمة تتحدث بلغة الشموع لغة لا يسبر غورها إلا فراشات النور. ها هي فاطمة تصرخ بصمت :

-بدوي صمتي اناديكم.. ثورتني تنطوي في حزني.. و رفضي كامن في دموعي .

و هذا كل ما أملكه من لغة... علّمكم تفهمون خطابي. انا مظلومة يا ربي ...

حزني من هؤلاء .

ذوت الشمعة... أحرقت نفسها. لم يبق منها إلا حلقات من نور... أن لها أن تنطفئ. الوجه يشبه قمراً أنهكته ليلة شتائية طويلة بدا مصفراً... و كان الصوت واهناً تحمله أمواج حزينة... والدموع غزيرة كمطر سماء غاضبة ...

رتبت «اسماء» فراش سيدتها و سيدة كل امرأة في التاريخ ...

لم يعد الجسد الواهن قادراً على تحمل روح عظيمة تريد الانطلاق إلى عوالم لانهاية .

وجاء الشيخان بريدان عبادتها و قد أوحسا خيفة ...

فاطمة غاضبة.. ينشدان رضاها. رضا السماء و الأرض والتاريخ .

هكذا قال محمّد من قبل ولكن أنى لهما ذلك و فاطمة تكاد تميز من الغيظ ..

قال عمر لعلي و هو يحاوره :

-يا أباالحسن ان أبا بكر شيخ رقيق القلب و كان مع رسول الله في الغار... و قد أتيناها غير هذه المرّة فلم تأذن لنا.. فاستأذن لنا منها

ماذا يقول أبو حفص كيف يفكر هذان الرجلان.. نهض عليّ جلس عند فاطمة و قال مستأذناً :

-يا بنت رسول الله قد كان من هذين الرجلين ما قد رأيت وقد تردداً مراراً ورددتهما.. وقد جاء الآن يسألاني الأذن .

-والله لا أكلمهما حتى ألقى أبي .

-يا بنت محمد.. اني قد ضمنت لهما الأذن .

-اما وقد ضمنت لهما شيئاً فلا اخالفك .

شعر أبو بكر بالأمل براود قلبه و نظر إلى صاحبه بامتنان .

-السلام عليك يا بنت رسول الله .

...

-إنا جئنا نسألك العفو و قد أقررنا بالإساءة .

...

-ارضي عنا رضي الله عنك .

...

-لا تحولني وجهك عنا.. انا نطمع أن يغفر لنا ربنا ...

قالت فاطمة كلمتها الأخيرة :

-ان كنتما صادقين فاخبراني عما أسألكما .

-سلي يا بنت رسول الله .

-نشدتكما بالله هل سمعتما أبي يقول: فاطمة بضعة مني فمن أذاها فقد أذاني؟

-اللهم نعم .

رفعت الزهراء يديها امام محكمة السماء :

-اللهم اشهد فانهما قد أذيانني.. واني اشكوهما اليك .

انتفض أبو بكر. ودلو تبلعه الأرض .

-يا ويلي.. يا ويلي.. ليتني لم اتخذك خليلاً. لقد ضللتني عن الذكر بعد إذ جاءني .

أجاب صاحبه و كان فصلاً غليظ القلب :

-لا تجزع يا خليفة الرسول لغضب امرأة .

هتف بمرارة .

-اقبلوني.. فقد ترضي فاطمة .

رمقه عمر بعينين متنمرتين :

-ماذا تقول يا خليفة الرسول... أترضي فاطمة و تغضب عائشة... والأقربون أولى بالمعروف. ولقد قضى الأمر .

وقف أبو بكر عاجزاً عن صد الرياح وهي تعدو مجنونة تهز شجرة غريسيها رسول السماء تريد أن تجتثها من فوق الأرض .

وقف الخليفة عاجزاً عن توجيه قافلة التاريخ الجهة التي أرادها سيد التاريخ وهاهو يتخذ طريقه في الصحراء سرباً .

و تمر الأيام و الرياح المجنونة التي تريد اجتثاث شجرة غريستها السماء في الأرض... تكاد تأتي على شمعة تسيل دموعها قطرات حزينة... ولسوف تنطفئ بعد حين .

القسم 39

هوت الشمس.. اشتعلت حمرتها في الأفق كجراح الشهداء... و شيئاً فشيئاً زحفت ككاتب المساء و لملمت الشمس خيوطها و رحلت بعيداً.. و ظهرت نجيمات تومض بأمل و فاطمة مشغولة دبت في جسدها عروق الحياة.. قالت لاسماء بسكينة :

-اسكبي لي غسلًا .

فرحت أسماء و هي ترى سيديتها تقبل على الحياة تخطو نحو العافية .

اغتسلت فاطمة... تطهرت من أدان الأرض وارتدت ثياباً جددًا.. و تعطرت بكافور كان جبريل قد أهداه إلى أبيها ...

قالت فاطمة وقد شاعت ابتسامه في وجهها .

-افرشي لي وسط البيت ...

فاطمة تستعد للرحيل.. لم يكن في البيت أحد سوى اسماء ...

اسماء ترأق فتاة تشع نوراً كلما اشتدت ظلمة الأرض .

قالت فاطمة قبل أن ترقد :
-يا أسماء أنا استنبح ما يفعل بالمرأة بعد الموت يطرح عليها ثوب فيصفها للناظر... ألا تصنعين لي شيئاً يسترني .
أجابت أسماء تطيب خاطرها :
-كنت بأرض الحبشة فرأيتهم يصنعون شيئاً فان أعجبتك صنعت لك مثله .
هزت فاطمة رأسها موافقة.. و راحت تراقب أسماء و قد تدفقت بناييع الأمل في قلبها الكسير .
أحضرت السماء سريراً فأكبته على وجهه ثم جاءت بجريد النخل و أوصلت بين قوائمه و شدتها بحبال من الليف... ثم ألقت عليه
غطاءً .
بان الرضا في وجه حورية الأرض وابتسمت :
-نعم اصنعي لي مثله.. ما أجمل هذا يا أسماء... استريني سترك الله .
تمددت فاطمة في فراشها ثم وضعت يدها تحت خدها.. أغمضت عينيها ونامت... و كانت أسماء قد سمعتها تتمم بصوت ملائكي :
-السلام على جبريل. الهي في رضوانك و جوارك ودارك دار السلام .